رسول الله وخاتم النبيين

دين ودولة

القسم الأول

عِلم السيرة النبوية
العالم والمصطفى والوحي

أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري

أستاذ السيرة النبوية

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (بالرياض)



رسول الله وخاتم النبيين
ديـن ودولــة

القسم الأول

علم السيرة النبوية
العالم والمصطفى والوحي

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العُمري، عبد العزيز بن إبراهيم

رسول الله وخاتم النبيين/ عبد العزيز بن إبراهيم العُمري ـ الرياض، ١٤٣٢ هـ

٢٧٢ ص؛ ١٤ سم × ٢١ سم

٥ مج

ردمك: ٩ ـ ٧٥٦٦ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)

٦ ـ ٧٥٧٦ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج١)

١ ـ السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٣٢/٥١٦١

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٥١٦١

ردمك: ٩ ـ ٧٥٦٦ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١م

- **اسم الكتاب: رسول الله وخاتم النبيين دين ودولة
علم السيرة النبوية، العالم والمصطفى والوحي**
- **تـــأليـــف: أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري**
- **الطبعة الأولى: ذو الحجة ١٤٣٢ هـ ـ نوفمبر 2011م**

ص. ب: 10437 ـ الريـاض 11635
E-mail: azizomary@hotmail.com

- الناشر: **بيسان للنشر والتوزيع والإعلام**
ص. ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان
تلفاكس: 351291 ـ 1 ـ 961
E-mail: info@bissan-bookshop.com
Website: www.bissan-bookshop.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

[الأحزاب: ٤٠]

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

[آل عمران: ١٦٤]

مقدمـة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فأعترف بأن المؤلفات في السيرة النبوية كثيرة، والجهود عظيمة، وما صدر منها في أزمان مختلفة جَلَّ أن يُحصى، وفضلها كبير، وقد غُطيت السيرة إجمالاً دروساً وأدباً وعلماً، شارك في ذلك جميع من كتب وألف فيها، حيث جرى تحبيبها إلى الناس وعرضها بأساليب مختلفة ولغات متعددة ومستويات شتى.

ومع اعترافي وشكري ودعائي لكل هؤلاء السابقين لي ـ في مجال السيرة ـ فقد أردت أن أنضم إلى صفوفهم، لعلّي أجد لي فيها موضع قدمٍ كمن يقف خلف إمامه في الصلاة (إمام المرسلين ﷺ).

ورأيت أن الكتابة في سيرة المصطفى ﷺ تحقق سعادةً آمل منها أن أكون ضمن تلك الصفوف الطويلة خلف المصطفى ﷺ، لعلي أنال بها شفاعته وأحظى بلقائه وإني لأرجو من الله ذلك.

ومما يلفت النظر عند مطالعة السيرة النبوية أو الكتابة فيها أنها تؤدي إلى محبته ﷺ، في كل أحواله وأعماله حتى في شكله الظاهر، فأنت حينما تقرأ أوصافه وهيئته ﷺ تشعر بالحب يتضاعف في قلبك، وبالروح الإيمانية تزداد قوة ويقيناً، وتجد سيرته قريبة من الإنسان سهلة التناول والتطبيق يستطيع أن يقتدي بها كل الناس، فهي ليست خاصة بفئة معينة أو قوم دون آخرين أو طبقة محددة من طبقات المجتمع.

واني لأعترف وأعلن أن أهمّ ما دفعني للكتابة في السيرة هو محبة الرسول ﷺ والتقرب إلى الله بذلك، وهذا شرف افتخر به وأذكره وأريده وأردده، وأطمع من ذلك في محبة الله ومحبةٍ من رسوله ﷺ **حين أَرِدُ حوضه ـ بإذن الله ورحمته ـ.**

ولا أزعم أني عالِمٌ أو أني آتي بجديد، لكني أطمع في أن أفيد من يقرأ في السيرة، وقد حاولت جهدي أن أسلك منهجاً معيناً في هذا الكتاب واضعاً أمام عيني أن أخدم القارئ لسيرة النبي ﷺ من عامة المسلمين، بالحقائق دونما زيادة.

والكتابة في السيرة ليست صعبة عليّ بفضل الله، وقد قمت

ولله الحمد بتدريسها ما يزيد على الخمسة وعشرين عاماً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وفي غيرها من الجامعات والمراكز الإسلامية في شتى أنحاء العالم باللغتين: العربية والإنجليزية، وأزعم أن لديَّ اطِّلاعاً على مصادرها ومناهج الكتابة فيها، وما يرتبط بذلك من علوم، وقد أجريت عدداً من الأبحاث والدراسات حولها وألممت بمصادرها، ولذلك فإن هذا الأمر ولله الحمد مُيَسَّرٌ لي بفضل الله ومَنِّهِ وكرمه.

وقد اخترت منهجاً لهذا الكتاب يقوم على الاستفادة من مصادر السنّة في الروايات المرتبطة بالسيرة وتقديمها على غيرها، وخصوصاً ما يرتبط بأحكام شرعية،ويأتي في مقدّمة ذلك صحيح البخاري، بكتبه وأبوابه المتفرقة وعناوينها المميزة، وغيره من مصادر الحديث،كما استفدت من الكتب المتخصصة في السيرة وتفاسيرها، والمصادر التاريخية المختلفة وغيرها، وبعض الكتب الحديثة المتخصصة، كما أنني استفدت كثيراً من المراجع والأبحاث الحديثة في مجال السيرة النبوية، مما يصعب حصره، وأشرت إليه بالتفصيل في مواضعه في هوامش الكتاب وفي قائمة المصادر، التي قاربت الأربعمائة ما بين مصدر ومرجع.

وقد حاولت صياغة الأحداث بأسلوبي الخاص، ممزوجاً بالشواهد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي أوردت

نصوصها عندما رأيت مناسبة لذلك، وحاولت الدمج بين ذكر الحدث وفقهه والاستفادة من دروسه في حياة الناس عامتهم وخاصتهم، وأبرزت الجوانب الحضارية العالمية والتنظيم والإدارة في السيرة النبوية، وترجمت لأكثر الناس معايشة للرسول ﷺ، وبعض ما يرتبط بتلك المعايشة من أحداث، بانياً ذلك على ما يصح من الروايات، وقد جعلت الكتاب شاملاً لما قبل ميلاد الرسول ﷺ، وما يتعلق بأحوال العالم المختلفة قبل الإسلام، وانتظار البشرية لخاتم الأنبياء ﷺ، وخصوصاً أهل الكتاب منهم.

وحاولت استقصاء الشواهد من مصادرهم من خلال نُسخها المعاصرة المعترف بها من قبل علمائهم حالياً، وكذلك من خلال مؤلفاتهم الحديثة، وأقوال المستشرقين عن النبي ﷺ.

وقد فصّلتُ في أحوال العالم المعاصر للنبي ﷺ، وتحدثت عن أحوال العهد المكي بجميع أحداثه ووقائعه، وكذلك المرحلة المدنية من السيرة بحوادثها المختلفة مدنيها وعسكريها، وتطرقت للنظم الإسلامية في العصر النبوي، وتأسيسه ﷺ لدولة الإسلام، والقيم التنموية والمدنية التي بثها في المجتمع البشري ﷺ، وأدارها بنجاح وتميز، وصارت نبراساً للبشرية، وللإدارة الإنسانية الشاملة.

كما تحدثت عن بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم وفاة الرسول ﷺ، ونجاحه في قيادة الأمة بعد رسول الله ﷺ.

وترجمت بالتفصيل للشخصيات المعايشة له ﷺ من المؤمنين به من أهل البيت ومنهم أمهات المؤمنين، وبناته، وأصهاره، ومن عاش في بيته من خدمه ومواليه ومن في حكمهم المؤثرين في الأمة، واجتهدت في هذا للربط بينهم وبين حياة الرسول ﷺ، وتأثير التربية النبوية على حياتهم في أيامه ﷺ وبعد وفاته.

ولَئِنْ لم أنل شرف رؤيته ﷺ فإني آمل أن لا يفوتني شرف صحبة سيرته وحياته، عبر أسفار الكتب ونبض القلم، وفيضان الحب والمشاعر، ونقل ذلك لأحبابه المؤمنين به، ومن يرغب التعرف عليه ﷺ.

وقد شعرت بالسعادة والتيسير والبركة في الوقت منذ اليوم الأول من عملي الجاد في هذا الكتاب، فكنت وأنا أكتب أحسُّ بقربٍ إلى الحبيب المصطفى ﷺ وأتنفس عصر النبي المصطفى ﷺ وأعيش أحداثه.

ومع بُعد الزمان، فقد كنت أحس بقربي منه وارتباطي بالزمن الذي أُعتقتْ فيه الإنسانية من رباط الوثنية ودخل الناسُ في توحيد الله تعالى والخضوع له وعبوديته، وأردت أن يدخل معي القارئ الكريم في هذا الشعور والإحساس.

كما أن في الاشتغال بالسيرة تقويماً للنفس ومحاسبةً ومراجعةً لها فيما قدّمت، في ضوء ما عُرف من سيرة المختار

تدفع الإنسان إلى الشعور بالتقصير وكثرة الاستغفار، ومحاولة تقويم للذات، وتربيتها، على اتباع منهج المصطفى ﷺ في السلوك والحياة.

كما أني اعتبر عملي بهذا الكتاب من الاستعداد للإجابة يوم القيامة ـ بإذن الله ـ حينما أُسال عنه ﷺ ما عِلْمُكَ به فأجيب بما يجيب به المؤمنون، وأقدم كتابي هذا بين يدي الجواب، وأكون ـ بإذن الله ـ عوناً للآخرين على الإجابة الصحيحة.

ورغم أن بعض أصحابي المخلصين ألمح إليَّ أني ربما لا آتي بجديدٍ في كتابةٍ عامةٍ عن السيرة، إلا أني رأيت أن هذه الكتابة ستأتيني أنا بجديد، وستُدخِلُ بإذن الله سعادةً على قلبي، كما آملُ أن أجدها عند ربي، وأن يشاركني فيها القارئ الكريم، سائلاً الله أن يقربني لرضاه، عائذاً بالله من عمل يُسْخِطُه، راغباً بالعون من الله والتوفيق.

وأجد هنا أن من الواجب عليّ أن أقدم جزيل الشكر والعرفان لمعالي الدكتور علي بن إبراهيم بن حمد النملة، الذي شجعني على العمل في هذا المؤلف وتكرم بمراجعته واستفدت من ملاحظاته جزاه الله عني خير الجزاء، وأدعو لكل من كان عوناً لي في إنجازه ونشره.

الرياض، بلودان الشام، بريدة

رجب ١٤٣٠هـ، ربيع الثاني١٤٣٢هـ

أهداف دراسة السيرة النبوية وفوائدها

إن أي عمل يقوم به الإنسان لا بدَّ أن يكون له هدف واضح، وثمرة متوقعه تدفعه للقيام به، ولعل دراسة السيرة النبوية من العلوم الإسلامية والإنسانية واضحة الأهداف والمعالم، متحققة الفوائد والثمرات، فالنبي ﷺ أحبُّ الخلق إلى الله، اصطفاه من خلقه، وحمّله رسالته، فمحبة الله وحبنا له تدفع لمعرفته ودراسة سيرته.

وهذا جزء من حقه علينا ﷺ وعلامة حقيقية لمحبته ومحبة الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

كما أن دراسة سيرة المصطفى ﷺ فيها معرفة ما كان عليه ﷺ من تجسيدٍ حيٍ للإسلام، حيث عاش ﷺ عبداً لله جمع بين الدنيا والآخرة، وهـذا ماثلٌ في سلوكه ﷺ في تطبيق عملي للإسلام ولشريعته وأحكامه، وبذل للنفس والمال في سبيل الله.

كما أن سيرة رسول الله ﷺ فيها دراسةٌ لتاريخ أعظم البشر وأفضلهم، والناس فطروا على دراسة سير العظماء على وجه العموم، ومعرفة سيرهم وحياتهم وقصصهم، ولـذلك فكل أمة من الأمم تحاول أن تبرز عظماءها، وتغزو بهم وبسيرهم العالم، بل ويلمعونهم وينسجون حولهم القصص الكاذبة أحياناً، ليظهروا للناس أن لديهم من يفتخرون به من الأعلام والرجال.

أما نحن المسلمين فحبيبنا وزعيمنا وقائدنا ﷺ هو أحسن وأفضل البشر، سيد ولَدِ آدم، ولذلك فإننا بدراسة سيرة المصطفى ﷺ نلبي هذه الحاجة الموجودة طبيعياً عند الناس، بأن نغطي هذه الحاجة بالمعلومات الصادقة الصحيحة، التي يحرص الناس بطبيعتهم على الاطلاع عليها، ونغطيها بمن يجب علينا أن ندرس حياته وسيرته لكي نتعلق به. وهنا لا بُدَّ من التأكيد على أن غير المسلمين جعلوا النبي ﷺ أبرز البشر، فكيف بنا نحن أتباع رسول الله ﷺ، الذين ينبغي أن لا نقدم أي إنسان عليه ولا نتعلم سيرة أحد أو تاريخ بشر قبله، لا ملكاً ولا وزيراً ولا عالماً ولا عظيماً ولا كائناً من كان قبل رسول الله ﷺ.

ومايكل هارت، مؤرخ أمريكي، زعم انه يؤرخ للإنسانية في كتابه: أعظم مائة رجل في تاريخ البشرية «The 100 ARanking of the most inflential personsin history» وضع رسول الله ﷺ أول إنسان في تاريخ البشرية، حيث قال ما نصه: «لقد اخترت محمداً ليكون في أول القائمة، ولابد أن يندهش كثيرون لهذا

الاختيار ومعهم حق في ذلك، لكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً على المستوى الديني والدنيوي، هو قائد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً، وبعد مرور (١٣) قرناً من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قوياً متجدداً»،[١] وهذا يذكرنا بقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح].

وقد قال عنه جوستاف لوبون في كتابه: حضارة العرب: (إذا قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد أعظم مَنْ عرفه التاريخ).[٢]

وقد قال عنه وليم موير muer: (مهما ندرس حياته نجدها على الدوام كتلة فضائل مجسمة، مع نقاء سريرة، وخلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان).[٣]

إن الله سبحانه وتعالى تعبَّدَ الأمة الإسلامية بدراسة حياة الأنبياء السابقين وسنن الله في الأمم الماضية تبعاً لموقفهم من

---

(١) مايكل هارت، أعظم مائة رجل في التاريخ، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري، القاهرة، ص ١٤.

(٢) جوستاف، لوبون، حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ، ص ١٤.

(٣) محمد خير الدرع، نبي الإسلام شخصيته حياته رسالته في عرض جديد، ص٦.

أنبيائهم ودعوتهم لله، وقد جعلهم نبراساً يحتذى وذكراً يتلى، وقدوة وتثبيتاً لرسوله ﷺ، وبالتالي فقصص النبي ﷺ وسيرته تثبيت لمن يتعلمها من المسلمين، خصوصاً أنها مرتبطة بكتاب الله وسنة نبيه ورسوله ﷺ من الذين جعلهم الله نبراساً ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه].

كل هذه الآيات وغيرها تؤكد أن دراسة ما جرى للأنبياء السابقين جزء من القرآن والدين والعلم الشرعي، الذي يوجه حياة محمد ﷺ وحياة أمته معه، وبالتالي فإن في دراسة حياته تربية للأمة، وعلم لا غنىً عنه إلى يوم القيامة.

كما أن دراسة سيرة النبيﷺ تعلم الإنسان الثقة بالله وأن لله سنناً ثابتة ينصر فيها الحق ويخذل الباطل، وأن العاقبة للمتقين وأن وعد الله تعالى لنبيهﷺ قد تحقق بحمايته ونصره وتمكينه على من اعتدى عليه وظلمه، وأن مكر الله سبحانه وتعالى لنبيه ونصره لنبيه قائم إلى قيام الساعة.

كما أن في دراسة سيرته امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى وعبودية له ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، معلمنا الأول ﷺ بأمر الله ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة]. وبالطبع، فإن التأسّي لا يكون إلا بعلم سنته، وسيرته وشمائله جزء من سنته، فيها قدوة للمؤمنين به في سائر أحوالهم، فهو قدوه للدعاة في حمل الهم والعمل الجاد وسمو الأهداف والغايات، وحب الخير للناس والرحمة بهم.

وللأزواج في التعامل والرحمة والعطف والحنان والحب الحقيقي.

وللزعماء والقادة قدوة في الإدارة وتقديم مصلحة الأمة، والرحمة بالناس والبعد عن الأنانية، والأمانة والإخلاص والسياسة بما يرضي الله، واستعمال الأصلح للناس في أعمالهم.

وللجيران قدوة في معرفة حقوقهم، وحسن التعامل مع جيرانهم والرفق بهم والهداية لهم وحفظ حقوقهم وحسن الصلة بهم.

وللمصلحين قدوة في الصبر والتحمل، وسمو الأهداف وترتيب الأولويات، والتغيير الاجتماعي للأصلح بهدوء وفعالية، سعي لتنمية الإنسان، وحفظ حقوقه.

فهو للآباء قدوة في العطف، والتربية والرحمة، والحب الحقيقي والتعلم، وللفقراء قدوة في الصبر على الجوع والعفة والأمانة، وللأغنياء قدوة في الصدقة والتواضع، والإيثار والأمانة والوفاء بالعهد، وعدم الإسراف، وللمريض قدوة في الاحتساب، وطلب الأجر والبحث عن الدواء فيما أحل الله وعدم الإثقال على الآخرين.

وعلى العموم فهو قدوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر من سائر الأمة ونُذكِّر أنه بدون علم لا يمكن التأسي.[(١)]

في دراسة سيرته ﷺ تحقيق لمحبته:[(٢)]

---

(١) انظر: محمد بن محمد عواجي، أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين، بحث في ندوة: عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة ١٤٠٥هـ.

(٢) انظر: سلسلة كتاب البيان، حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال، تقديم صالح بن فوزان الفوزان وآخرين، دار البيان، ط١٠، الرياض ١٤٢٦هـ. =

فمحبته مُقدّمةٌ على النفس ومحبته محبة لأخلاقه وفضائله، محبة المُحْسَن إليه للمُحْسِن بالثناء والإجلال والتقدير، كيف لا وإحسانهﷺ قائم للمسلمين وللإنسانية جميعاً إلى يوم القيامة، بما حمل لهم من هداية الله، فمحبته أعظم وأسمى مراتب المحبة، فهو أعظم الناس تأثيراً في حياتناﷺ لنؤدي بعض حقه علينا ونقدمه على أنفسنا، وعلى كل شيء آخر، لنأخذ عنه ونقدم أوامره على غيره: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر]، وقد قال ﷺ: ((والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده. وفي روايةٍ والناس أجمعين)).[(١)]

كان ﷺ آخذاً بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: (لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك)، فقال عمر: فإنه الآن والله أنت أحب إلي من نفسي، فقال ﷺ: (الآن يا عمر).[(٢)]

= وعبد الله بن صالح الخضيري وعبد اللطيف بن صالح الحسن، محبة النبي ﷺ وتعظيمه، ط١ دار البيان، الرياض١٤٢٧هـ.

وعصام محمد عطية، لماذا نحب محمداً، ط١ إدارة الدراسات والأبحاث الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ١٤٢٨هـ.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب «وحب الرسول ﷺ من الإيمان» ج١/ ٩.

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري، كتاب الإيمان، شرحه (باب حب الرسول ﷺ من الإيمان).

قَال تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

قَال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

وبدراسة سيرته ﷺ معرفة لفضله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

ونقدر له ﷺ كم بذل من نفسه (في سبيل الله): ومن ماله، ومن دمه، ومن أحبابه وأقاربه وأهله ومن وطنه.

وكذلك يتبين لنا فضل الله على نبيه ﷺ وفضله سبحانه علينا.

قَال تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

ومن المعروف للمسلمين جميعاً بل ولمن سبقهم من الأمم أهمية دراسة تاريخ الأنبياء:

ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]. وقد تأسى ﷺ بالأنبياء قبله. وقصّ عليه القرآن الكريم ذكرهم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

في معرفتنا بسيرة الرسول ﷺ نعرف الأمم المختلفة والأنظمة التي حكمت العالم وسادت قبل الإسلام، سياسياً أم فكرياً ودينياً أم أخلاقياً، ونعرف النعمة التي أحدثها الإسلام في حياة الناس، كما قال عمر رضوان الله عليه: (لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية).

بعلم السيرة نعرف ما كانت عليه أحوال الأمم عامة والعرب قبل الإسلام خاصة، التي يمكن إيجازها في قول ربعي بن عامر حينما رد على رستم يوم القادسية: قال: (الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسَلَنا بدينه

إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبي قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعد الله، قال: وما موعود الله قال الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى).[1]

لقد فهم ربعي كيف كانت حاله وحال الناس وكيف صارت بمبعث محمد ﷺ ـ إنها الجاهلية التي أشار إليها القرآن في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح]، وحذر منها ﷺ بقوله: ((أبِدَعوى الجاهليةِ وأنا بين أَظْهُرِهِمْ)).[2]

ونحن ينبغي أن ندرك التغيير الذي جاء به ﷺ والنعمة والرحمة التي حملها للبشرية جمعاء. وهذا يعرف بدراسة سيرة المصطفى ﷺ.

إن الصدق في سيرة المصطفى ﷺ لا يقابله أي طرح تاريخي عن شخصية أخرى مهما كانت تلك الشخصية.

فنحن بدراسة السيرة نتعلم صدقاً لا زوراً كما يحدث لبعض الشخصيات، كما أننا نصل إلى تفصيلات وحقائق لا تتوفر لغيره ﷺ.

حيث إن بعض الشخصيات التي درسها العالم وأولعوا

---

(١) الطبري: تاريخه، ج٤/١٠٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٣٥١٨.

بالحديث عنها نجهل الكثير من جوانب حياتهم، فالنصارى ليس عندهم تفصيلات حقيقية عن نبيهم عيسى عليه السلام، ولعل من يعرف تاريخ عيسى عليه السلام ويعرف ما كتبه النصارى عنه يدرك أن جوانب حياته عليه السلام لم ترصد، ولم تسجل ولم تكتب ولم تدرس بشكل صحيح فأتباعه هم أجهل الناس بها.

أما المسلمون فعندهم شمول الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ ودقائق الأمور في حياته ﷺ وهذا دليلٌ على محبة الأمة لنبيها ﷺ.

ولا يُعَدّ من معرفة أن ذكره ﷺ سابق لزمانه، حيث إن الحديث عنه ﷺ كان في زمن الأمم السابقة، ففي زمن عيسى عليه السلام يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

كما تحدث موسى عليه السلام في زمنه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]. إن أخبار محمد ﷺ وصفاته عرفت قبل ولادته بقرون، حيث كان علماء أهل الكتاب

ينتظرون مبعثه، ولا تزال في بعض كتب النصارى إشارات قوية وواضحة لرسول الله ﷺ نبي آخر الزمان.(١)

بدراسة السيرة نتعرف على كتاب الله،(٢) فحياة الرسول ﷺ مليئة بالأحداث التي نزلت فيها آيات من كتاب الله سبحانه وتعالى في مناسبات مختلفة.

كما أن بعض أسماء سور القرآن الكريم ارتبطت بأحداث السيرة، كما في الأنفال والتوبة، والإسراء، وطه، والأحزاب، والشرح، والعلق، والهُمزة، والفيل، وقريش، والكوثر، والكافرون، والنصر، والفلق.

مع أن بقية السور لا تخلو من آيات مرتبطة بأحداث السيرة كما في غزوات بَدْرٍ وأُحُد والأحزاب وفتح مكة وحنين وغزوة تبوك وغيرها من الغزوات التي ورد فيها آيات من كتاب الله سبحانه وتعالى في ثنايا العديد من السور.

بل نجد أحداثاً أخرى خاصة كعلاقته ﷺ بنسائه وزواجه من بعضهن كزينب بنت جحش، والحديث عن آل البيت وعن الصحابة رضوان الله عليهم، وعن أحوال الأمة وتطوراتها وردت

---

(١) انظر: الموضوع المتعلق بـ (العالم وانتظار الرسول ﷺ) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: صالح أحمد الشامي، أضواء على دراسة السيرة، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤١١هـ، ص٢١.

فيها آيات في كتاب الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فدراسة سيرته تعطي الإنسان تصوراً صحيحاً عن ما ورد في كتاب الله من أسباب النزول، وتعطيه انطباعاً خاصاً وكأنه يعيش عصر تنزل القرآن، والتحديات التي تعرض لها رسول الله ﷺ، ومعه الأمة والمجتمع المسلم، وكيف ثبَّت الله إيمانهم بما شاهدوه من أحداث عرفوها في القرآن المنزل عليهم في تلك الفترة، ومن يتدبر السيرة يَعِشْ كما عاشوا عن علم ويزيد إيمانه بما يعرفه ويتعلم، وبالتالي يحيى في عصرهم وإن بعُد زماناً ومكاناً عنهم، ويرى بنفسه التجسيد الحي للإسلام وأهله في معية رسول الله ﷺ، وأصحابه ويعيش تَنَزُّلَ الآيات تبعاً للأحداث.

إن الإنسان ليعجب كيف يجرؤ بعض المستشرقين على تناسي هذه الحقيقة، ويزعم بعضهم أنه تعلم القرآن في أثناء رحلته إلى الشام وهو صبي،(١) أي عقلية تلك التي تتجاهل هذه الحقائق وبأي منطق تتحدث؟!

إن في دراسة السيرة معرفة جيل الصحابة وفضلهم وتنمية محبتهم ومعرفة درجاتهم التي أشار الله إليها في قوله تعالى:

---

(١) انظر: (***R. Gottheil. «Achristion Bahira legened» Zeits Chrift für Assqriologie, 13, (1898). pp. 189-242, 14:14 (1899). Pp. 203-268. 15 (1900) pp. 56-102; 17 (1903) pp. 125-166)*** نقلاً عن، فارس الجميل، رحلة الرسول إلى الشام ومقابلة بحيرا الراهب، مجلة الجمعية التاريخية السعودية سنة ١٤٢٥هـ.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد].

فيعرف السابقين إلى الإسلام من هؤلاء الصحابة، والمبشَّرين بالجنة منهم، وأصحاب بدرٍ وبيعة الرضوان وفضلهم، ويربط إسلامهم وأعمالهم بالسيرة النبوية وأحداثها، وقد وضح البخاري وغيره في كتابه الصحيح مناقب هؤلاء الصحابة.[1]

ويدرك المسلم أن تزكية رسول الله ﷺ لهؤلاء وبشارة من بُشِّرَ منهم بالجنة كان عن وحي يوحى، وأنه لا ينطق عن الهوى حين قال: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم).[2]

وأن بشارته بالجنة للعشرة ولغيرهم تعني خاتمة حسنه لهم، وأنهم بالتالي لقوا الله وهو راض عنهم، فتزيد محبة هؤلاء لمن يعرف مواقفهم، ويقف أمام الكارهين لأصحاب رسول الله الذين طعنوا فيهم ليشككوا في الرسول نفسه وفي ما قاله فيهم، كما أننا نعرف المواقف التي قام بها كل منهم مع رسول الله في

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب.

(٢) من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، ص ٦٤، باب فضل من شهد بدراً، ٩.

إبلاغ دعوته والدفاع عنه، فمنهم شعراء الرسول: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحه وعاصم بن ثابت.

ومنهم خطباء الرسول ﷺ، كثابت بن قيس بن الشماس، وأبي بكر وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وغيرهم.

ومنهم أمراء الرسول: أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخالد بن الوليد وعبد الله بن جحش وزيد بن حارثة وابن أم مكتوم، وأبو عبيده بن الجراح وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين.

كما نعرف الشهداء من الدعاة للرسول من أصحابه، وعلى رأسهم أصحاب الرجيع، وبئر معونة وغيرهم، وشهداء مختلف الغزوات، ونعرف الأغنياء منهم كيف بذلوا وأنفقوا كعثمان وعبد الرحمن بن عوف، والفقراء كيف صبروا وتعففوا، المتزوجون منهم والعزاب الصَادقين والصادقات والقِانتين والقانتات والحَافظين فروجهم والحافظات.

هذا الكلام عن رسول الله وأصحابه أخبر به موسى بني إسرائيل قبل ما يزيد على ألف سنة من مبعثه ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف].

أولئك تلاميذ محمدﷺ الذين كان منهم خلفاء راشدون،

وقادة محنكون وسياسيون وأبطال فاتحون وعلماء قادوا العالم وأظهروا فيه العدل والتوحيد والرحمة.

إنهم الرعيل الأول الذين سبقوا إلى الدخول في الإسلام وحمل رسالته للعالم فلهم فضل كبير علينا، فواجبنا الدفاع عنهم ضد أعدائهم وكارهيهم، مهما لبسوا من لباس وأظهروا من تقوى، أولئك الذين حاولوا إبعادنا عن جيل محمد ﷺ وأصحابه، في وقت قدسوا فيه علماءهم، ونزّهوا أصحاب علمائهم، وقدسوا تلاميذ علمائهم، ورضوا بالطعن في تلاميذ محمد ﷺ وأصحابه.

وبدراسة السيرة نعرف الخصائص النبوية[1] التي أنعم الله بها على رسوله المصطفى ووجوب اتباعه وما له من حقوق ﷺ وأن ما جاء به الحق، وأن أمره مقدم على أمته وعلى الناس جمعاء وهذا أمر من الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء].

فهو ﷺ معلم للأمة وقائدها دائماً وأبداً في الأفراد والمجتمعات والدول ما بقي الزمان، فمحمد دائمٌ في حياة

(١) لمزيد من التوسع انظر: كتاب الخصائص النبوية للإمام السيوطي رحمه الله؛ وأبو بكر الجزائري، هذا الحبيب يا محمد.

الناس، له عليهم حقوق، في حال الضعف يذكرونه، وفي حال القوة يذكرونه، ذكره دائم ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]. (١)

خصائصه متعددة، أولها الرحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء].

﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ۝١٢٤﴾ [الأنعام].

فهو أعظم البشر، علّمه وأدّبه رب العالمين كما قال ﷺ: (أدبني ربي فأحسن تأديبي). (٢)

اختاره واصطفاه ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾ [الجمعة].

خاتم الأنبياء، وأرحم الناس، وأكرم الناس، واصدق الناس، وأنظف الناس، وأطهر الناس.

أُيِّد بالمعجزات والبينات والبراهين والكرامات، شاهدها

---

(١) انظر: كتاب الخصائص النبوية، الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وأبو بكر الجزائري، هذا الحبيب يا محمد.

(٢) حسَّنه عدد من العلماء، وله شواهد.

انظر تخريجه عند: أحمد عبدالعزيز الحداد في، أخلاق النبي في القرآن والسنة، ج٢/ ١٠٣٣.

معاصروه وأدركها العلماء ومحبوه، علا ذكره على سائر الخلق بما له من حق، وبما وعده الحق تبارك وتعالى.

صلى الله عليه والملائكة وأمر العباد بذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب].

فتح الله له ونصره وغفر له، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٣﴾ [الفتح].

إن دراسة السيرة النبوية تقوي عزائم المؤمنين وتعلمهم الصبر وتفتح لهم الأمل بانتصار الحق على الباطل، وبغلبة دين الله على ما سواه وبالقوة بعد الضعف وبأن الله ناصرٌ دينه ونبيه وأمته إلى يوم الدين.

- إن السيرة النبوية علم بذاته ومفتاح لعلوم متعددة، فمن خلالها يتعلم المسلم الأخلاق وتطبيقها والعقيدة وأصولها، والأحكام الشرعية والآداب المرعية، والعدل والنظم الإسلامية وسياساتها الشرعية وكسب الناس لدين الله.

واستظهار الحقائق الكثيرة عن حياة الرسول ﷺ ودرء الشبهات عنها ومعرفة هذا العلم بعيداً عن المغرضين وجهالة العوام.

كما يتعرف دارسو السيرة على كثير من الحقائق الجغرافية لبلاد العرب عموماً والحجاز خصوصاً وسائر العالم المجاور الذي ارتبطت به أحداث السيرة، مثل الحبشة، وبلاد فارس، والروم، ومصر، وغيرها فيما له صلة بحياة الأمة الإسلامية الأولى في عصر النبوة، وارتباطها بأحداث السيرة زمن النبي ﷺ، فقد كان ابن عمر يتتبع آثار النبي ﷺ في منازله التي مر بها في غزواته وأسفاره.[(١)]

والدارس الحقيقي للسيرة يعيش بعلمه وعقله وروحه ووجدانه وشعوره زمن النبي ﷺ، يرى حجراته ومسجده وكيفية بنائها، يشاهد مجالسه ومن يحف به من الصحابة، يسمع آيات الله من فيه ﷺ، يرى عطفه وشفقته، يتصوره حاملاً سيفه في بدر وأُحُدَ وحُنين شجاعاً مقداماً.

وفي الوقت نفسه يرى بكاءه وهو يسمع القرآن من أصحابه فرحاً بما آتاه الله، وبتعلم الصحابة له، عطوفاً على الفقراء رحيماً بالناس أجمعين، في زمنه وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- كما أن الدارس المتعلم لسيرة النبي ﷺ ومصادرها الصحيحة يتعلم ما صح من الروايات فيما يبنى عليه علم وحكمة.
- ويدرك الإنسان مراحل حياة الرسول ﷺ المختلفة وتدرجه في

---

(١) ابن سعد، الطبقات. ج٤/ ١٤٥.

دعوته وفي اختيار المناسبين لاستقبالها وقبولها من الناس، ويعرف الدارس المراحل داخل المراحل والمواقف في الواقع، ويستفيد من ذلك في تطبيقها في حياتنا المعاصرة وخصوصاً للدعاة حاملي هَمَّ دعوة الرسول ﷺ ودينه ورحمته للناس.

كيفية دراسة السيرة النبوية

إن أي باحث أو قارئ للسيرة النبوية ينبغي عليه أن يستشعر شخصية الرسول ﷺ، وما له من حقوق وخصائص حباه الله إياها، اصطفاه لوحيه ورسالته من بين خلقه، وأعطاه عصمة ثابتة لا يتطرق إليها شك في الدين والأخلاق في توحيده الخالص لله سبحانه وتعالى، وعصمته من الشرك، والكذب قبل البعثة وبعدها، في عدله وإنصافه وأمانته ورحمته بالناس قبل البعثة وبعدها، في عناية الله به وحفظه وتأديبه له قبل البعثة وبعدها منذ مولده ﷺ وأنه ليس لأحد أن يخطِّئ رسول الله ﷺ إلا ما ذكره ربه تبارك وتعالى في معرض تأديبه له، كما في قصة الأعمى في سورة عبس، أو في أسْرىٰ بدر، أو فيما ذكره هو ﷺ ولا يقبل من أحد من البشر غير ذلك.

وبالتالي فإن على دارس السيرة أن يلتزم الأدب مع النبي ﷺ.

حين الحديث عنه ﷺ وعن سيرته وحقه ومحبته ﷺ وما له في أنفسنا وقلوبنا، ويجب أن نرتبط بالأدلة الشرعية، ونتذكر ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى وما أخبر به رسول الله ﷺ من أنه عبد لله ورسوله، وأنه بشر من البشر، لكنه أفضل البشر كما قال ﷺ: (أنا سيّد ولدِ آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض). (١)

ففي مصاف العظماء هو الأول لا يسبقه أحد، لكنه صلوات ربي وسلامه عليه أكد أنه عبد من عباد الله تعالى، وقد ورد ذلك في آيات عديدة من كتاب الله كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء].

ويأتي التأكيد على عبوديته في معرض الحديث عن رفعه والإسراء به، حتى لا يأتي من يسير على خطى النصارى ويخرجه عن بشريته فيغلوا فيه كما غلوا في عيسى عليه السلام، فمع ذكر هذه الكرامة الفريدة لرسول الله ﷺ يأتي التأكيد على عبوديته

---

(١) رواه الترمذي في صحيحه، باب فضل النبي ﷺ رقم (٣٦١٥)، وروى البخاري أجزاءً منه في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الإسراء، ومسلم في كتاب الإيمان.

انظر: تفاصيل تخريجه عند: أحمد الحداد في كتاب أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، ج١/ ٤٦٠.

وانظر: ابن كثير، تفسير سورة الإسراء، ج٢/ ١٠٨٥.

لله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء] مع أنه لو ذكرت الآية أسرى برسوله لكانت حقاً، لكنها تؤكد على مقام العبودية الذي هو تكريم له ولسائر البشر، كما جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] مذكراً بعبوديته ﷺ لله ومع ذلك فإن مقامه لا يصل إليه أحدٌ من البشر، فلا يقدم المسلم أحداً من البشر، لا من الأهل ولا من الولد ولا غيرهم على محبة رسول الله ﷺ.

وقد أكرمه الله بالعبودية مع اصطفائه بالوحي والرسالة، وليس في هذا ضعف وإهانة لرسول الله ﷺ بل من كمال رسول الله ﷺ أن يكون عبداً، وليس ككل العبيد حيث كان ﷺ عبداً شكوراً كما قال صلوات ربي وسلامه عليه لأم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) حينما رأته يقف من الليل يصلي حتى تتفطر قدماه فكأنها أشارت على الرسول ﷺ أن يكفيه بعض ذلك فقال ﷺ: (أفلا أكون عبداً شكوراً)،[(١)] لم يقل نبياً شكوراً ولا رسولاً شكوراً، لأنه يرى أن من كمال نبوته ﷺ أن يكون

(١) من حديث البخاري، في التمهيد، باب قيام الليل، ومسلم في صفة القيامة «باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة» برقم ٢٨٢٠.

عبدالله، وذلك تصديقاً لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾ [الزمر].

لكنه سيد البشر ﷺ وهو قدوة الناس، جاء ليقودهم للعبودية الحقة لله تعالى وحده، فكان ﷺ في مقدمتهم وأمامهم في أمر الله.

وكان ﷺ يعيش حياة البشر، يأكل وينام ويتزوج ويبيع ويشتري يصادق ويعادي كل ذلك داخل عبوديته لله. ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام].

إن أي دارس للسيرة النبوية وأحداثها ينبغي عليه أن يستشعر العصر الذي عاشه النبي ﷺ وإمكاناته وظروفه، ليدرك الصعوبات التي واجهها ﷺ وأصحابه، يدرك المناخ ودرجة الحرارة، وحجم الإنتاج الزراعي والحيواني والاقتصادي في منطقته ومحدودية الإمكانات المادية والبشرية والثروات الطبيعية في بيئته مقارنة بغيرها.

كما يدرك الظروف الجغرافية والعادات والتقاليد وأحوال العرب قبل الإسلام، ما يجعله يأخذ تصوراً صحيحاً عن الوضع الذي عاشه الرسول ﷺ ليعطيه حقه من التقدير وحق أصحابه رضي الله عنهم.

كما أن عليه إجراء المقارنات الذهنية اللازمة بينه وبين أعدائه ومعانديه من مشركي العرب ويهودها في تلك المرحلة.

وعليه أن يدرك مختلف المراحل لسيرة النبي ﷺ ولدعوته، ومن ذلك بالدرجة الأولى ما قبل البعثة وما بعد البعثة، وما قبل الهجرة وما بعدها، وما قبل بدر وما بعدها، إلى غير ذلك من الأحداث الحاسمة في حياة الرسول ﷺ وحياة أمة الإسلام في أيامه، والعالم أجمع.

كما أن على الدارس أن يربط أحداث السيرة بما ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى وأن يرجع إلى كتب التفسير وإلى أسباب النزول إن احتاج الأمر إلى ذلك.

وأن يضع الإنسان في ذهنه الأهداف العامة لدراسة السيرة النبوية وأن ما يكتبه أو يقوم به في عمله العلمي يحقق هذه الأهداف أو شيئاً منها.(١)

كما ينبغي ربط السيرة بالحوادث المعاصرة في المجتمعات الإسلامية والإنسانية،(٢) وتأثير العصر النبوي علينا في زماننا، ومعرفة سنن الله في الخلق.

كما ينبغي أن يدرك أنه أمام شخص اصطفاه الله سبحانه وتعالى وحرّم الكذب عليه ويتذكر قول الرسول ﷺ: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).(٣)

---

(١) انظر: سليمان حمد العودة، قضايا ومباحث في السيرة النبوية، دار المسلم، الرياض ١٤١٦هـ ص١٩.

(٢) انظر: سر الختم عثمان علي، تدريس السيرة النبوية في مناهج التاريخ المدرسية، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٢هـ ص٣٥.

(٣) متفق عليه: من رواية البخاري في صحيحه، كتاب العلم باب إثم من كذب على الرسول ﷺ ج١/ ٣٦.

وبالتالي فإنه ﷺ ليس بحاجة أن يُكذب عليه أو يُكذب له، سواء بحسن نية أو بسوء نية، فقد يظن البعض بدوافع عاطفية أن إضافة حوادث غير صحيحة تجلب المحبة للنبي، وهذا بالطبع ما نهى عنه النبي ﷺ، مهما كانت الدوافع لا يجوز الكذب عموماً، فما بالك على رسول الله ﷺ، كما أن هذا بعيد عن خلق العلماء والعقلاء، وعن طلب الحقيقة وعن المنهج العلمي الإسلامي والإنساني عموماً.

ويكفينا ما صح عن رسول الله ﷺ ولسنا بحاجة لإضافات عليها، وهذا بالطبع لا يمنع الدراسة والتحليل واستخراج الفقه مما صحّ حدوثه، فهذا مطلب علمي وفقهي صحيح يصب في أهداف دراسة السيرة.

كما أن النقد العلمي للمتن منهج صحيح يمكن تطبيقه في مرويات السيرة النبوية.

والباحث العملي في سيرة النبي ﷺ يجد أنها غطيت بدقائق الأحداث وتفصيلاتها.

وقد عدّ كثير من العلماء علم السيرة علماً قائماً بذاته، وكانوا يرونه قسماً من السنة النبوية، لكن مناهج المؤلفين فيه أخف من منهج المحدِّثين في شروط قبول الرواية الحديثة لما يبنى على الحديث من أحكام شرعية.

ولذلك نجدهم فيما يتعلق بالسيرة أكثر مرونة فيما لا يتبعه

حكم، مثل ترتيب الأحداث أو أعداد المقاتلين أو السلاح، مع إيراد الكثير منهم لسند روايته في معظم الأحيان، وحرصهم على نقد الرواية باستمرار، واستبعادهم للضعيف منها.

ومع هذا فإن المحدِّثين الذين أدرجوا في كتبهم أقساماً في السيرة كالبخاري في كتاب المغازي من صحيحه، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، وغيرهم عن أصحاب السنن، طبقوا قواعدهم العامة في تمحيص الأحاديث المنسوبة للنبي ﷺ ولم يستثنوا مرويات السيرة من هذه القواعد.

وقد اهتم المؤرخون المسلمون عموماً وأوائلهم بالذات في جمع روايات السيرة النبوية، بطريقتهم وحسب ترتيبهم للأحداث وذكروا أسانيدهم بدقة، وحاولوا تصوير الوقائع والأحداث وترتيبها زمنياً بمنهج تاريخي وتميز واضح وإثراء في الأسلوب وإيراد السند كمنهج المحدّثين.[١]

وقد انصب جهد المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى على جمع الروايات الخاصة بالسيرة وتدوينها والاجتهاد في انتقاء ما يراه المؤلف كابن إسحاق في سيرته وشارحه ابن هشام وكذلك الطبري.[٢]

وقد قام المتأخرون بعد ذلك بجهود خاصة، لتمحيص

---

(١) د. أكرم ضياء العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص١١.

(٢) د. أكرم ضياء العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص١٦.

الروايـات والتدقيق فيها ونقد مُتونهـا بطريقـة علميـة أكثـر دقة.[1] حتى غدا علم السيرة قائماً بذاته، علم وسط يجمع علم السنة (الحديث النبوي) وعلم التاريخ، يطبق عليه مناهج النقد المختلفة ويسير وسطاً بين هذين المنهجين.

ولعل الكثير من السلف عرفوا هذا العلم باسمه الواضح علم السيرة أو علم مغازي رسول الله ﷺ.[2]

وقد بذلت الأمة جهوداً مختلفة عبر عصورها التاريخية المتعددة في التأليف في هذا الفن ودقائقه، حيث أُلِّفت كتب شاملة في مرويات السيرة مثل مرويات عروة بن الزبير (ت٩٤هـ)،[3] وموسى بن عقبة (ت ١٤٠هـ) وغيرهم.

كما اشتهرت مؤلفات بعينها كالسيرة النبوية لابن إسحاق (ت: ١٥١هـ)[4] وشرحها لابن هشام[5] وهو أكثر كتب السيرة انتشاراً

---

(١) د. أكرم ضياء العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص١٦.

(٢) انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي، المخطوط، السيرة والمدائح النبوية، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٩٦م.

(٣) انظر: سلوى مرسي الطاهر، بدايات الكتابة التاريخية عند العرب، أول سيرة في الإسلام عروة بن الزبير، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

(٤) سيرة ابن إسحاق المسماة المبتدأ والمبعث والمغازي، لمحمد بن إسحاق بن يسار (٨٥ ـ ١٥١هـ)، تحقيق وتعليق محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث، فاس ـ المغرب، ١٣٩٦هـ.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام بن محمد بن عبد الملك بن هشام المعافري، ت ٢١٣هـ، تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٤م.

وتداولاً بين الناس فيما أظن، وما تبعها من شروح مختلفة،(١) وكتاب المغازي للواقدي،(٢) وكتاب المغازي لابن أبي شيبة.(٣)

كما عمل البعض حديثاً على استخراج أقسام السيرة من كتب التاريخ العام، أو من كتب الطبقات، ولعل من ذلك ما جرى من استخراج السيرة النبوية من كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد(٤) والسيرة النبوية من تاريخ الطبري،(٥) والسيرة النبوية من تاريخ الإسلام للذهبي،(٦) السيرة النبوية من كتاب البداية

---

(١) أشهرها (الروض الأنف) في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، للفقيه المحدث أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي (ت٥٨١هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ، وكتاب شرح السيرة رواية ابن هشام للحافظ أبي ذر بن محمد بن مسعود الخشني، (ت٦٠٤هـ)، صححه بولس بروتله، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) المغازي، للواقدي، محمد بن عمر (ت٢٠٧هـ)، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب بيروت، بدون تاريخ.

(٣) أبو بكر بن أبي شيبة، كتاب المغازي، تحقيق وتخريج الدكتور عبدالعزيز العمري، دار إشبيليا، الرياض، ١٤٢٠هـ.

(٤) السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، لابن سعد، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٩هـ، مجلدان؛ وغزوات الرسول وسراياه لابن سعد، أخرجها أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم، بيروت، ١٤٠١هـ.

(٥) السيرة النبوية لابن جرير الطبري، تحقيق جمال بدران، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٤هـ.

(٦) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري جزء خاص بالمغازي، وجزء خاص بالسيرة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

والنهاية لابن كثير،[1] ويضاف لذلك المؤلفات العديدة المختلفة في الشمائل والخصائص النبوية، والدلائل والمعجزات التي يصعب حصرها في مثل هذه العجالة فضلاً عن الموسوعات الأخرى الشاملة للسيرة ومنها: (زاد المعاد) في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية.[2]

وكذلك سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢هـ) فيما يزيد على عشرة مجلدات.[3]

والدلائل والشمائل، ومن ذلك دلائل النبوة، للحسن بن عبدالله الأصبهاني.

والخصائص الكبرى لجلال الدين السيوطي، (ت: ٩١١هـ) وكتاب أعلام النبوة، للماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب، (ت: ٤٥٠هـ).[4]

---

(١) شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، تحقيق شعيب الأرناؤط وعبد القادر الأرناؤط في خمسة مجلدات وفهارس مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٦هـ.

(٢) السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، لابن سعد، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٩هـ، مجلدان؛ وغزوات الرسول وسراياه لابن سعد، أخرجها أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم، بيروت، ١٤٠١هـ.

(٣) حققها وأخرجها عدد من العلماء، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، تواريخ مختلفة حتى ١٤١٤هـ.

(٤) دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

والشمائل النبوية للترمذي، والشمائل الشريفة للسيوطي، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي.[١]

والشفا لتعريف حقوق المصطفى، للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي، (ت٥٤٤هـ).[٢] وابن حجر الهيثمي في اشرف الرسائل إلى فهم الشمائل.[٣]

كما أنه ألفت كتب متخصصة في فقه السيرة، وهي مفيدة جداً للقارئ العادي والداعية يستقي دروساً وأدباً وسلوكيات من حوادث السيرة وتقدمها بأسلوب راق.[٤]

وقد اجتهد مؤلفوها وكتابها، ونقلوا علم السيرة إلى مرحلة جديدة نستطيع أن نسميها «فقه السيرة»، كما سماها أولئك العلماء الذين كان لهم منهج واضح في كتاباتهم، رغم عمليات التصحيح والتقويم التي تعرضت لها كتبهم من قبل علماء آخرين وخصوصاً في تصحيح الروايات التي أوردوها في الكتب.[٥]

---

(١) تحقيق الدكتور عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ.

(٢) دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

(٣) تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

(٤) من هؤلاء محمد الغزالي في فقه السيرة، ومحمد سعيد رمضان البوطي، في فقه السيرة. ومنير الغضبان وغيرهم. (انظر: قائمة المصادر).

(٥) انظر: فقه السيرة، لمحمد الغزالي، خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني.

لكنهم وبكل أريحيه ردوا على منتقديهم واحترموهم وأبدوا وجهة نظرهم فيما قيل عن تلك المؤلفات.[١]

كما أن بعض المؤلفين كتبوا في قضايا محددة كالحديث عن شخصية الرسول ﷺ، وهديه في التغيير الاجتماعي أو في نظام الدولة الإسلامية،[٢] أو في غزواته بشكل عام، أو في مرحلة معينة كالعهد الملكي، أو المرحلة المدنية، إلى غير ذلك من النماذج والطرق في التأليف في السيرة، التي لا يتسع المجال لطرحها والإلمام بها جميعاً، حيث تأتينا المؤلفات الحديثة في السيرة كل يوم بجديد.

وأما الكتابة في العصر الحديث فقد أخذت أشكالاً متعددة.

منها ما ركز على حادثة معينة وجمع رواياتها ودرسها وحكم عليها وأخرج حولها بحثاً كاملاً يعد مرجعاً في ذاك الحدث ورواياته وما ورد حوله والحكم عليها من حيث الصحة من عدمها. وقد توجه لهذا الأمر عدد من الأقسام العلمية في الجامعات الإسلامية في مقدمتها الجامعة الإسلامية بالمدينة

---

(١) انظر: محمد الغزالي في فقه السيرة، ص١١، مقدمة بعنوان: حول أحاديث هذا الكتاب.

(٢) من ذلك تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمود سلامه، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٠١هـ، ومن ذلك نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية لعبدالحي الكتاني.

المنورة وغيرها من الجامعات السعودية والمصرية وغيرها.

كما ألفت كتب وأبحاث مختلفة تعد شاملة للسيرة النبوية ومن أمثلة ذلك:

- مرويات غزوة بني المصطلق، إبراهيم قريبي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- مرويات غزوة الحديبية، حافظ حكمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- مرويات غزوة بدر، أحمد محمد العليمي باوزير، رسالة علمية من الجامعة الإسلامية في المدينة، مكتبة طيبة،الرياض، ط١، ١٤٠٠هـ.
- غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، دراسة نقدية، د. بريك بن محمد بريك أبو مايلة العُمري، مركز البحوث، الجامعة الإسلامية بالمدينة، ط١، ١٤٢٤هـ.
- عبد القادر حبيب السندي، الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك، مكتبة المعلا، الكويت، ١٤٠٦هـ.
- السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، د. محمد بريك أبو مايلة العُمري، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٧هـ.
- غزوة أُحُد، دراسة دعوية، محمد عطية بن سعيد با مذحج، دار إشبيليا، الرياض، ١٤١٩هـ.

■ غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم، عرض وتحليل د. سعود بن عبدالله الفنيسان، دار إشبيليا، الرياض، ١٤١٨هـ.

■ السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق، د. سليمان بن حمد العودة، ط١، جامعة الإمام، الرياض، ١٤١٤هـ.

ومن المؤلفات المطول الشامل[١] ومنها المختصر المركز، ولكل شيخ طريقته، وجميعها مفيدة، فمنها ما أعد للعالم المتعمق المتخصص في علم السيرة، ومنها ما أعد للقارئ العادي، ومنها ما أعد للصغار أو للشباب، ومنها ما جعل بحثه سرداً للأحداث، ومنها ما جمع بين الحدث وفقه الحدث وهي الأنفع لقارئ السيرة، ويختلف بعضها عن بعض في صعوبة الأسلوب من سهولته، اشتهر بعض منها أحياناً، وانتشر أكثر من غيره، مع أن هناك أحياناً ما هو أفضل منه، اعتمد بعضها على منهج واضح يمكن تلمسه، وصدر بعضها بعفوية من مؤلفه.

وفي رأيي أن كل تلك المؤلفات المتنوعة والمتعددة تخدم السيرة ومساراتها المختلفة، وتصب جميعاً في نشر علم السيرة ما دامت تحقق أهداف دراستها، ولا تخرج عن الصحيح من الروايات.

---

(١) ومن ذلك موسوعة نضرة النعيم، في مكارم أخلاق الرسول الكريم، تأليف صالح بن عبدالله بن حميد وعبدالرحمن محمد ملوح وآخرون، في (١٢) مجلداً، دار الوسيلة، جدة، ط٤، ١٤٣٠هـ.

ولعل من أبرزها ما أُلِّف عن السيرة النبوية في القرآن الكريم،[1] أو ما استخرج من كتب حديثية أو شروحاتها مباشرة.[2]

(١) انظر: محمد عزه دروزة، سيرة الرسول ﷺ مقتبسة من القرآن الكريم، المكتبة العصرية، بيروت، وعبد الصبور مرزوق، السيرة النبوية في القرآن الكريم، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، بدون تاريخ.

(٢) انظر: محمد الشنقيطي، السيرة النبوية عند ابن حجر في فتح الباري، الكويت ١٤١٤هـ.

خصائص السيرة النبوية

لا شك أن سيرة النبي ﷺ علم عظيم عن شخصية مصطفاةٍ من الرب تبارك وتعالى، وأحداث شهد عليها القرآن فيما تنزل من آيات تتلى إلى يوم القيامة وبالتالي تميزت بخصائص منها:

- أن صاحبها أفضل البشر، رفع الله له ذكره، وأدبه فكان سيد ولد آدم على الإطلاق، منذ وجد الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- علو المصدر في هذه السيرة النبوية المؤيدة بآي القرآن الكريم في أغلب حوادثها وعامة مغازي المصطفى ﷺ وخلقه وسجاياه.

- أنها أدق سير الأنبياء والصالحين تفصيلاً ودقة حيث تابع الصحابة كافة جوانب حياته الخاصة والعامة ونقلوها لنا بدقة متناهية، كما لم تنقل سيرة بشر آخر من قبله ﷺ.

- أنها أصحّ سيرة عرفتها البشرية، صاحبها الصادق الأمين ﷺ، نقلها الصادقون من أصحابه، عُرِف ناقلوها، وصحّت أسانيدها.

- أنها جمعت في ثناياها أعمال الرسول ﷺ التعبدية والدنيوية، وسياسته الشرعية وجهاده ومغازيه، ومن عاصره من أصحاب وأمم وأقوام.

- ارتباط السيرة وأحداثها بمعالم جغرافية محددة ومعروفة، تدعمها وتؤكد مصداقيتها وتمكننا من متابعة أحداثها، وأماكن وقوعها بدقة وواقعية، وتناسق وتناغم عجيب.

- أنها مليئة بالدروس والعبر التي يمكن للمسلم خصوصاً وللإنسان عموماً مهما كانت حاله ومكانته ووظيفته أن يستفيد منها، ليصل إلى أسباب النجاح، والسعادة الدنيوية والأخروية.

- أن في حياة الرسول ﷺ وإيواء الله له في يتمه وحفظه وعصمته من الناس معجزة تُشاهَد وتُحَسّ من خلال السيرة النبوية، ومن خلال نصر الله وحفظه دينه وانتشاره ومراحل حياته ودعوته، صدق الله فيها ما وعد نبيه وما وعد عباده الصالحين في أيامه.

- أنها نالت اهتماماً عظيماً من الأمة، فقهائها وعلمائها ومحدّثيها، فقلَّ أن يوجد عالم بارز إلا وقد ضرب بسهم في

الكتابة في السيرة النبوية، فاستفاد منها وأفاد، ما ساهم في تربية الأمة عبر الأجيال، وترقية الأخلاق والقيم.

- أن فيها تطبيقاً حياً لمعرفة سنن الله في الكون والحياة ونصر الله لنبيه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

- أن السيرة تعالج جوانب حياة الرسول ﷺ كافة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام]. وتغطي حياته وصفاته وشمائله وتربط ذلك برسالته ونبوته واصطفاء الله له.

- إمكانية اختيار موضوعات محددة بذاتها من السيرة تشكل حدثاً جديراً بالدراسة لوحدها بتفصيلات أدق ودروس أشمل.

- كثرة المؤلفات فيها واختلاف مستوياتها وشمولها، فمنها ما يصلح للعالِم ومنها ما يصلح للعامي ومنها ما يصلح للصغار والشباب أو الرجال والنساء، وغير ذلك من المستويات، كما أنه كُتب عنها بلغات العالم قاطبة دونما استثناء،(١) وكتب عنها في مختلف العصور ولا يزال يكتب عنها إلى يوم الدين، وكل تلك الكتابات تأتي بجديد.

---

(١) انظر: د. علي النملة، المستشرقون والسنة والسيرة في المراجع العربية، مكتبة بيسان بيروت، ١٤٣١هـ.

- أنها تؤرخ لعصر انقلاب عالمي وتغير في حياة البشرية، نُقل فيها الناس من الوثنية إلى التوحيد، ومن الشِّرك إلى عبادة الله وحده ومن الجاهلية إلى الإسلام.
- التأثير العظيم للسيرة في نفوس المطلعين عليها، ومساهمتها الكبرى في التأثير على السلوك وتقويمه وتزكية النفس والأخلاق وتربيتها على الزهد في الدنيا والرغبة في ما عند الله، وشعورها بالسعادة، كما أنها تزيد الإيمان بما تثير في النفوس من حب الرسول ﷺ.
- أنه من خلال السيرة يمكن التعرف على أحوال العرب وبلدانهم وقبائلهم وكثير من العناصر الإنسانية والعمرانية والأعراق والعادات السائدة عند العرب ومن جاورهم، واحتك بهم قبل الإسلام وبعده، والاطلاع على أوضاع العالم قاطبة وحضاراته في مرحلة حساسة من تاريخ البشرية.
- من خلالها يتم التعرف على الدور العظيم لأصحاب النبي ﷺ ونصرتهم له بالنفس والمال والأهل، ومحبتهم عند الله وعند رسوله وأتباعه، وبالتالي الدفاع عنهم أمام أعدائهم المستنقصين لهم، وهم أحباء رسول الله وأصهاره، من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ وأمهات المؤمنين وبقية الآل والصحابة الذين ﷺ ورضوا عنه.
- جمال السيرة وحقيقتها وكمالها وواقعيتها وطيب حياة صاحبها ﷺ.

أن السيرة النبوية المدخل الصحيح لفهم القرآن الكريم، وما تنزل فيه من آيات على رسول الله ﷺ في مختلف مراحل حياته.

أقسام السيرة النبوية

مرت السيرة النبوية وما يرتبط بها من أحداث وحياة للنبي ﷺ بمراحل متعددة، وقسمت حسب اصطلاح علماء السيرة إلى أقسام زمنية مترابطة ومتسلسلة، ينبغي أن يدركها الباحث في السيرة. ومن المعلوم أن مواقف النبي ﷺ ترتبط بوحي من الله وإذن منه تبارك وتعالى في كثير من أحواله، ترتّب عليها نزول الشرع وأحكامه مع تحركات النبي ﷺ ومراحلها، إضافة إلى قلة وضعف أتباعه في البداية، وكثرتهم وقوتهم في آخر حياته وخصوصاً بعد فتح مكة، ومن هنا فإن العلماء قسموا السيرة وعصرها إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول: العهد المكي، والقسم الثاني: العهد المدني:

وقُسم العهد المكي إلى قسمين (ما قبل البعثة) و(ما بعد البعثة).

القسم الأول من العهد المكي ويحوي: الأوضاع في مكة والعالم قبل الولادة، وحياة النبي ﷺ من الولادة إلى البعثة النبوية، وهي تغطي أربعين سنة من حياة الرسول ﷺ، وما سبقها.

وقد احتاجت هذه المرحلة إلى مزيد من العناية في تمحيص الروايات الخاصة بها ومعرفة طرقها، والتأكد من صحتها وما ذكر من أخبارها، إذ إنه من الثابت نقلاً وعقلاً أن الرسول ﷺ حين نزل عليه الوحي لم يكن ينتظره ولم يكن يدعيه، ولا يتحدث عن شيء من ذلك على الإطلاق قبل أن ينزل عليه جبريل بـ«إقرأ»، بل إنه ﷺ احتار في ما رأى حتى اتضح له الأمر وتكرر عليه الوحي.

ولذلك فمن الثابت أنه لم يكن يعلم بنبوته قبل أن ينزل عليه الوحي، ولم يكن أحد من الناس يعلم أنه ﷺ بذاته هو نبي آخر الزمان قبل أن يبعث، وإن كان أهل الكتاب ينتظرونه ويقرون بحضور زمنه، فلم يكونوا يحددونه شخصياً لهذا الأمر، وربما لم يتوقع الكثير وخصوصاً اليهود أنه من خارجهم.

ولا يعني هذا أن النبي ﷺ كان عادياً كسائر الناس. حاشا وكلا، فقد كان مصطفى ﷺ من الله تعالى قبل ولادته، ولكن الناس لم يعلموا بنبوته، ولا هو علم بذلك ولا قال به إلا بعد البعثة.

ومع اصطفاء الله له فقد حماه الله قبل الولادة وبعدها، وأدبه الله منذ صغره واتصف بأفضل الصفات وأزكاها وآواه الله في يتمه، وعصمه من الخطأ والشِّرك ودفع عنه شر الإنس والجن. وكان الناس يرون تميزه في الأخلاق والصفات، ويرون فيه كمالاً وأمانة ليست في غيره، وكان جده عبد المطلب يتوقع له

شاناً، لكنه لم يقل على الإطلاق لا هو ولا غيره بنبوته، وبالتالي فإن أحداث السيرة من الولادة إلى البعثة ينبغي أن تدرس في إطار هذا التصور الزكي النقي للمصطفى ﷺ دون معرفة أحد من الخلق بأنه نبي، وبعيداً عن أي ذكر منه ﷺ لنبوته، مع معرفة كماله واصطفاء الله له من دون علم الناس بهذا في هذه المرحلة.

القسم الثاني من العهد المكي: وقد امتد قرابة ثلاثة عشر عاماً، ويبتدئ بنزول الوحي على رسول الله ﷺ وينتهي بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة.

وهذا القسم من العهد المكي لم يؤمر فيه الرسول ﷺ بقتال المعاندين له.

وأمر بالدعوة سراً في أوّل المرحلة ثم أمر بالجهر بالدعوة والصدع بها.

وعاش خلالها ﷺ مرحلة من الأذى الشديد الذي أصابه من طغاة قريش ومشركيها، كما عاش ذلك المستضعفون من أصحابه، حتى أمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة في مرحلتين مختلفتين، ودفعتين متفرقتين.

شهدت هذه المرحلة وجود مدافعين عن الرسول ﷺ منهم عمه أبو طالب، ولم يكن مسلماً، وزوجته خديجة (رضي الله عنها) وهي أول المؤمنين به، وبناته وأصحابه الكبار أبو بكر

وأمثاله، وشهدت وفاة أهم المدافعين عنه عمه أبي طالب وزَوْجه خديجة، وحزنه عليهم، كما شهدت محاولات الرسول ﷺ الهجرة إلى الطائف والبحث عن قبائل خارج مكة وفي أسواق العرب المجاورة لها لعلها تؤويه وتنصره.

كما شهدت إسلام الأوائل من الصحابة في مكة وإسلام أشخاص معينين من خارجها رصدتهم كتب السيرة وعنونت لذلك كعلامات بارزه في أحداث هذه المرحلة.

كما شهدت حادثة الإسراء والمعراج، وهي من أهم الأحداث، في مكة التي عزت النبي ﷺ ورفعت منزلته، حيث كشف الله لرسوله ﷺ فيها من المعجزات والوقائع الحاضرة والمستقبلية ما لم يعلمه قبل تلك الرحلة.

وفي نهاية هذه المرحلة جاءت بيعة العقبة الأولى والثانية، وهاجر الرسول ﷺ بعدها إلى المدينة، وسبقه ولحقه أصحابه ﷺ من مكة ومن خارجها.

ولذلك فإن سمات المرحلة المكية واضحة، وخصوصاً فيما تنزل فيها من آيات في كتاب الله ومن أحكام شرعية، ومن طريقة للتعامل مع الأعداء ومجادلتهم والحوار معهم، تختلف إلى حد ما عن المراحل التالية بعد الهجرة إلى المدينة.

حيث وقعت حوادث معينة وأخذ الصراع فيها مع المشركين والكفار منحى آخر وخصوصاً بعد الإذن بقتال المشركين.

وفي الوقت الذي تُعدّ فيه هذه المرحلة في معظم أحداثها مرحلة جهاد وقتال ومعارك ضد أعداء الله ورسوله، فإنها تعد في الوقت نفسه مرحلة بناء للمجتمع المسلم الجديد في المدينة المنورة، بناءً شرعياً نظامياً، بدءاً بمعاهدة المدينة التي أسست لتكوين مجتمع مدني مشترك مع غير المسلمين إن أرادوا السلام، هدفه العدل وحفظ الحقوق الإنسانية والدفاع عن المدينة، وبناء اقتصاد تنموي عام، ركز على تشجيع الإنتاج والعمل والجدية، سواء بتشجيع الزراعة واستصلاح الأراضي عن طريق التشريع أو الإقطاع، أم الثناء النبوي على المنتجين والدعاء لهم، أم العمل على البناء بلا مبالغة الذي بدأه الرسول ﷺ بنفسه ببناء مسجد قباء والمسجد النبوي وحجرات أمهات المؤمنين، وما تلاه من بناء دور ومزارع المهاجرين، والتشجيع العام على الإنتاج حتى في الاحتطاب، وتشجيع التجارة وتبادل المصالح مع المناطق الأخرى داخل الجزيرة العربية، وداخل المدينة وتأسيسه ﷺ سوق المدينة، والخروج من حصار يهود الاقتصادي للمسلمين في سوق بني قينقاع.(١)

كما شهدت هذه المرحلة تنظيماً إدارياً للمدينة.

كان ﷺ مع منزلة النبوة رأس الدولة وقائدها، له مساعدون

---

(١) انظر: عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، الطبعة الأولى، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي، الدوحة، قطر، ١٩٨٥م.

من كبار الصحابة. وكان ﷺ حريصاً على إقامة العدل والإنصاف بين الناس مسلمهم وكافرهم، يؤَمَنَ كل مستقيم مقيم غير معتد ولا آثم.

ولذلك فإن مرحلة المدينة ليست جهاداً ومغازي فقط، كما يظنها البعض، بل هي بناء ونظام وترتيب اجتماعي واقتصادي، مع الجوانب الأخرى العسكرية. ونستطيع القول إن ذلك كله صحبه تخطيط دقيق حكيم مصيب من المصطفى ﷺ.[1]

ولعل لهذا العهد المدني محطات معيّنة تفصله إلى أقسام محددة، فلدينا (غزوة بدر) محطة كبرى يختلف فيها وضع الأمة الإسلامية ما بعد بدر عن ما قبلها.

وكذلك غزوة الأحزاب تعد محطة أخرى، حيث بدأ الميزان يتأرجح لصالح المسلمين، إذ إنه بعد الأحزاب أصبح المسلمون هم المهاجمين لقريش بعد أن كانت هي الغازية للمدينة.

وتأتي (غزوة الحديبية) وصلحها لتفتح الطريق للدعوة الإسلامية في كل الجزيرة العربية وخارجها، ولينطلق فيها دعاة الرسول ﷺ إلى القبائل كافة دون خوف أو وجل.

---

(١) انظر: عبدالعزيز العمري، مبادئ التخطيط والإدارة في السيرة النبوية، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤٢٨هـ.

ولتنطلق رسائل الرسول ﷺ بعدها إلى ملوك العالم في كل اتجاه؛ إلى الروم والفرس والقبط والحبشة وغيرها.[١]

يلي ذلك الفتح الأكبر، فتح مكة، حيث سقط أكبر عدو للرسول ﷺ، والفئة المؤمنة، وتوجه رسول الله ﷺ بعد ذلك لتأكيد دعائم الإسلام وترتيب أوضاع الجزيرة العربية التي دانت كلها له، فنظمها وبث فيها العلم والعدل ووزع الأمراء والقضاة والمعلمين،[٢] استعداداً للانطلاقة العالمية الكبرى في أنحاء الأرض كافة.

وتأتي المحطة الأخيرة، حجة الوداع،[٣] ليبين الرسول ﷺ للبشرية جمعاء الحاضر منها والغائب أنه أدى رسالة ربه ولتجيبه جموع الحاضرين: (نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة)

---

(١) انظر: محمد بن عبدالله غبان، مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ، رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم التاريخ والحضارة في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
وانظر: عون الشريف قاسم، نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ، دراسة في وثائق العهد النبوي، ومحمد حميد الله، في كتابه وثائق العهد النبوي والخلافة الراشدة.

(٢) انظر الفصل الخاص بـ (الولاية على البلدان في العصر النبوي)، من كتاب الولاية على البلد في عصر الخلفاء الراشدين لعبد العزيز العمري ص٣٩.

(٣) انظر: حجة الوداع.. دراسة جامعة للأحاديث والآثار الواردة في حجة النبي ﷺ والجمع بينها على طريقة أهل الحديث والفقهاء للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق خالد أبو صالح، دار الوطن الرياض، ١٤١٦هـ.

صلوات ربي وسلامه عليه وليستعد ﷺ للقاء ربه بعد أن جاءه نصر الله والفتح، وليلقى الرفيق الأعلى بعد ذلك وهو في حِجْر عائشة وحُجرتها ليقول الصِّدّيقُ كلمة الحق في الموقف الصعب: (من كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)،[1] وليساهم الصديق ومعه أصحاب رسول الله ﷺ في توصيل رسالة النبي ﷺ للناس كافة بتوحيد الله وإخلاص العبادة له والقضاء على المرتدين والانطلاق في أرض الله فاتحين حاملين راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلى الأنحاء كافة، ولتسعد أمة الإسلام حتى اليوم بتلك الجهود المباركة لأصحاب محمد ﷺ وتلاميذه، ولتسعد وتشهد البشرية بذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

تلك أبرز ملامح السيرة النبوية ومحطاتها التي ينبغي أن يخرج دارس السيرة بتصور عنها، ولا شك أنه داخل ذلك تأتي جملة أحداث مختلفة تحمل دروساً ومواقف للاستفادة والقدوة والوعي تحمل الخير والرحمة للمطلع عليها.

ومن المعروف أن المجتمع المدني في العهد النبوي مرّ بمراحل كثر فيها عدد الصحابة وازدادوا بالتدرج، تنوعت قبائلهم ومناطقهم، واختلفت أعمارهم وتنوعت مشاركاتهم، منهم من شهد المشاهد كلها، ومنهم من شهد بدراً واستشهد

---

(١) انظر: موضوع (وفاة الرسول ﷺ) من هذا الكتاب.

فيها، ومنهم من أسلم قبل الفتح ومنهم من اسلم بعد الفتح، لكل منهم موقف وحديث ولكل حادثة رجال لكل منهم دوره، حيث بدأت غزوة بدر بثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً ووصل العدد إلى ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك.

كان في ملامح هذا العهد بناء لمجتمع ودولة امتدت يميناً وشمالاً حتى غطت الجزيرة العربية وشارفت على الخروج منها، واستعدت لتلك الانطلاقة العالمية بعد أقل من سنتين من وفاته ﷺ.

شهد هذا العهد تدرجاً في أحكام الشريعة سواء في التحريم مثل الخمر والربا أم في الواجبات مثل صيام رمضان والحج وغيرها أم في التنظيم وترتيب ولايات الدولة الإسلامية وعمالها وموظفيها.

كما شهدت صراعاً مع قوى معادية كانت في أولها مع قريش والمنافقين ويهود المدينة وخيبر، ومع قبائل مختلفة، وفي آخرها احتكاك مع الروم والفرس أعظم قوتين في العالم في أيامه.

كل هذا التصور في التدرُّج والتغيير والبناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري وما يشمله من ملامح حياة الرسول ﷺ والأمة معه، ينبغي أن يكون حاضراً في ذهن المطلع على السيرة النبوية وعلومها، ليدرك الظروف المختلفة والمحيطة بأحداث السيرة العطرة.

مصادر السيرة النبوية

إن سيرة النبي حديث عن أخبار ماضية، من باب الرواية التي يلزم الإنسان التحقق منها، بالأساليب العلمية الصحيحة، وهي رواية عن أفضل الخلق وأحب الناس، فلابد من معرفة مصدر الخبر ومن أين جاء.

ولا شك أن المصادر بأقسامها المختلفة تنوعت، وهي التي استقى منها المؤلفون في السيرة أخبارهم ورواياتهم.

وأهمية الخبر تقترن بمصادره، وأمانة في نقله، وحين الحديث عن مصادر سيرة النبي ﷺ يتبادر إلى الذهن، أن قسماً كبيراً منها متفرق يرتبط بالقرآن وبعلوم شرعية وأدبية مختلفة منها.

القرآن الكريم وعلومه

القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه، اشتمل في العديد من سوره وآياته أخباراً عن رسول الله، وبعض أحداث سيرته ﷺ وأخباراً كثيرة عن عصره، وعن ما قبله ابتداء من آدم عليه السلام، نجد فيه حديثاً عن الجاهلية وأوضاعها، والعرب وأصنامها، والضلالة وامتدادها، وعن حال العالم عامة وأحوال قريش خاصة، وما فيها من جهالة وضلال، تضمّن حوار رسول الله ﷺ مع قريش، وحواره ﷺ مع اليهود والنصارى، وقصص كثيرة كانت تحدث بين رسول الله ﷺ وأناس مختلفين من أصحابه، أو من أعدائه، تنزلت بها آيات من القرآن بينات.

كما نجد ارتباطاً لأسماء بعض سور القران الكريم بحياة الرسول ﷺ وسيرته.

ودراسة أسباب النزول من أهم ما يخدم المتعلم لسيرة الرسول ﷺ، ولو استعرضنا أسماء السور في القران الكريم لوجدنا ارتباطاً بين أسماء تلك السور وبين حياته ﷺ، فنجد في سورة الأنفال ارتباطاً بأحداث غزوة بدر، كما نجد في سورة التوبة حديثاً عن غزوة تبوك (غزوة العسرة) وعن المؤمنين والمنافقين، والحديث عن أول مسجد بني في الإسلام (مسجد قباء)، وفي سورة الإسراء الحديث عن الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وسورة (الأحزاب) سميت بتلك الغزوة، نجد وصفاً دقيقاً لحال المؤمنين وتكالب الأعداء عليهم، ولبيت النبوة وأوضاع

أمهات المؤمنين، مع التأكيد فيها على التأسّي بالرسول ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب].

كما ترسم المستقبل لدور أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، في تعلم ما يتلى في بيوته ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)﴾ [الأحزاب] حتى يقمن بهذا الدور بعد وفاة الرسول ﷺ.

سورة (محمد) سميت باسمه ﷺ، وقد ألف علماء الأمة كتباً في أسمائه ﷺ ومعانيها.(١)

وفي سورة (الفتح) يأتي الحديث عن صلح الحديبية وغزوتها، وكيف أن الله سبحانه وتعالى جعلهما فتحاً، في وقت ظن البعض أنها هزيمة، وفيها الآيات العظيمة المتعلقة بصفات رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه، دفاع من الله عنهم إلى يوم الدين وجمع بين الصحابة ونبيهم ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا (٢٩)﴾ [الفتح].

---

(١) انظر: الموضوع الخاص بأسمائه ﷺ.

سورة (الحجرات) ارتبطت التسمية بحادثة وفد بني تميم، حينما جاؤا لرسول الله ﷺ ضمن وفود قبائل العرب فكانوا ينادونه ﷺ بشيء من الجفاء ونداء غير منضبط، كما ينبغي لرسول الله ﷺ.

سورة (المجادلة) فيها حديث عن امرأة كانت تجادل رسول الله ﷺ، وكما قالت عائشة (رضي الله عنها) كنا في الدار قد يفوتنا بعض كلامها.(١)

وفي سورة (المنافقين) فضح الله سبحانه وتعالى ما قالوا في رسول الله ﷺ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون]. ورد الله سبحانه وتعالى عليهم وفضحهم.

وفي سورة (التحريم) حادثة مرتبطة ببيت النبوة برسول الله ﷺ وبأمهات المؤمنين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم].

---

(١) ابن كثير، كتاب التفسير، ج٢/ ١٨٣.

وفي سورة (المزمِّل) و(المدَّثر) ارتباط بالحديث عن مبعث رسول الله ﷺ، وعن دخوله إلى دار ه مرتجفاً وحديثه لخديجة (رضي الله عنها) زمِّلوني زمِّلوني دثِّروني دثِّروني فإذا بالآيات تتنزل على رسول الله ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾ [المزمل]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ [المدثر]. إلى آخر ما ورد في تلك السور.

وفي سورة (عبس) ذِكْرٌ للأعمى (ابن أم مكتوم) وحادثته مع رسول الله ﷺ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أدب رسوله ﷺ، ولذلك يقول ﷺ (أدبني ربي فأحسن تأديبي).[1]

وفي سورة (العلق) ارتباط بالحديث عن بدء نزول الوحي على رسول الله ﷺ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق].

وفي سورة (الفيل) حديث عن حادثة الفيل قبل الإسلام، وجيش أبرهة الحبشي ومحاولته هدم الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، في العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ، ويوافق سنة ٥٧٠م.[2]

والحديث عن تجارة قريش وأحلافها ينطلق من سورة (قريش) ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: موضوع (مولد الرسول ﷺ،) من هذا الكتاب.

[قريش]. وفيها تركيز على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والحلف بين قريش و القبائل قبل مبعث الرسول ﷺ وبعده يرتبط بأحوال العرب قبل البعثة، وأهم الأحداث التي جرت حينذاك.

ويأتي الرد على الكفار في سورة (الكافرون) حينما فاوضوا الرسول ﷺ وقالوا نعبد الله عاماً وتعبد آلهتنا عاماً، فيأتي الرد عليهما تكراراً وتأكيداً لمبدأ التوحيد عند الرسول وتبرئته من الشرك في هذه السورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

والتأكيد على الفرق بين الكفر والإيمان، وأن المسلم لا يشرك بالله في يوم ولا ساعة ولا لحظة ولا ثانية، وأن الشرك ليس فيه مفاوضة أو أنصاف حلول.

والأمثلة كثيرة يصعب حصرها، حيث سيرد الحديث عن ما ورد في القرآن الكريم من آيات مع حوادث السيرة النبوية في موضعه.

«والقرآن وهو يعرض بعض آياته للحديث عن الرسول ﷺ يعرض لك عرضاً تحس معه إحساساً حقيقياً أن كل جملة من آياته تفيض بالحركة». (١)

---

(١) شقرة، محمد إبراهيم، السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطّرة، ط١، مكتبة المعارف، الرياض١٤١٨هـ.

ولابد من التأكيد دائماً على أن مصدرنا الأول في دراستنا لسيرة المصطفى ﷺ هو القرآن الكريم الذي نجده يسير معنا منذ ما قبل مبعث رسول الله ﷺ مثل سورة [الشرح] والحديث عن يُتْم الرسول ﷺ إلى أن تأتي وفاة رسول الله ﷺ، حيث أشير لها في ثنايا آيات متفرقة،[1] أو سور سميت بحادثة مرتبطة بسيرة الرسول ﷺ.

وقد ارتبطت بالقرآن علوم خاصة تخدمه، وتقربه لأفهام الناس. ولكي نفهم الآيات وأسباب نزولها وارتباطها بحياة الرسول ﷺ لابد أن نتابع ذلك من خلال مختلف كتب التفسير، سواء منها ما ركز على المعاني، أم ما ركز على الآثار وأسباب النزول، أم ما جمع بينهما.

ومن أهم ما يُرجَع إليه في تفسير الآيات بالأثر تفسير الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو غيرهما، كما أن كتب أسباب النزول تعد مصدراً مهماً لا غنى عنه للباحث في السيرة.

كتب الحديث[2]

تعد كتب الحديث من أهم مصادر سيرة النبي ﷺ، ويأتي

(١) انظر: موضوع (وفاة الرسول ﷺ) من هذا الكتاب.

(٢) سيأتي ذكر للشواهد الواردة في مواقعها من الكتاب.

في مقدمتها (صحيح البخاري)، الذي يحوي كثيراً من أخبار السيرة مجموعة في (كتاب المغازي) من الجامع الصحيح، كما يحوي أخباراً متفرقة ذات صلة بأحداث السيرة، في أبواب الصحيح المتفرقة التي يظهر من عناوينها موضوعات أخرى كالعبادات والمعاملات وغيرها، لكنها ذات صلة بأحداث السيرة، كما أن (كتاب المناقب) عند البخاري يحوي مناقب مختلفة لأصحاب رسول الله ﷺ ولأمهات المؤمنين وآل البيت، ولبعض القبائل والمجموعات التي عاصرت النبي ﷺ، ولا يُستغنى عن تلك الروايات في معرض الحديث عن الروايات المرتبطة بها.

ومن الأمثلة على أهمية روايات صحيح البخاري نجد فيما يتعلق بغزوة بدر مثلاً، (باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر)، تضمن أحاديث عمن يقتل من المشركين، قالها قبل المعركة ووقعوا وقُتلوا كما أخبر الرسول ﷺ، ثم يذكر البخاري (باب قصة غزوة بدر)، (باب إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم)، وهنا يربط البخاري بين الآيات والأحاديث وتفسير تلك الآيات من خلال أحاديث صحيحة (باب: عدة أصحاب بدر)، (باب: دعاء النبي ﷺ على كفار بدر)، (باب: قتل أبي جهل)، (باب فَضْلُ من شهد بدراً)، (باب: شهود الملائكة بدراً) (باب: تسمية من سمى من أهل بدر)، كما يضع باباً في غزوة الخندق وغير ذلك من الأمثلة التي يصعب حصرها، فهذه بعض أبواب

داخل (كتاب المغازي) في الجامع الصحيح تابعة للحديث عن غزوة بدر وما ورد فيها، تبين لنا أهمية روايات البخاري في الجامع الصحيح لأحداث السيرة.

ومن المعروف أن فقه البخاري في صحيحه لا يقل عن عمله في الجمع والرواية، فالبخاري لديه فقه خاص للأحاديث يتمثل في عناوين أبوابه في كتبه يستكشف منها مقدار علم البخاري رحمه الله وفقهه للحديث.

كما أن ابن حِجْر في فتح الباري وغيره شرح أحاديث البخاري، وتوسع في الحديث عن السير، وقد استخرج الشنقيطي كتاباً ممتازاً في مجلدين عنوانه (السيرة النبوية في فتح الباري).[(١)]

كما يزوِّدنا (كتاب الجهاد والسِّير) عند الإمام مسلم في صحيحه بثروة كبرى من الروايات الخاصة بالسيرة النبوية في كتب متفرقة في ثنايا صحيحه، ذات علاقة بسيرة النبي ﷺ جمعها في كتابه، وفي هذا القسم أحاديث وروايات عن معظم غزوات الرسول ﷺ والكثير من الحوادث التي شهدها النبيﷺ، ولا يستغني دارس السيرة النبوية والكاتب فيها عن الاطلاع على مثل هذه الأبواب داخل صحيح مسلم، ومن

---

(١) انظر: د. محمد الأمين محمد الشنقيطي، السيرة النبوية في فتح الباري، الكويت، ١٤١٥هـ.

الأمثلة على ذلك (بَاب كُتُبِ النبي ﷺ) إلى مُلُوكِ الْكُفَّارِ يَدْعُوهُمْ إلى اللهِ عز وجل)،[1] (بَاب في غَزْوَةِ حُنَيْنٍ)،[2] والأمثلة كثيرة يصعب حصرها.

والاطلاع على (شرح النووي) لصحيح مسلم يفيد القارئ والباحث في السيرة، كذلك فإن بقية كتب الحديث ومختلف مصادره ذات أبواب خاصة بالسيرة وحياة النبي ﷺ،حيث توجد في جميع كتب السنن أبواب في مناقب الرسول ﷺ، ومناقب أصحابه.

وكتب المسانيد ثرية بالروايات ذات العلاقة بالسيرة وأحداثها، ومن ذلك (مُسْنَد الإمام أحمد)، الذي يحوي أغزر مادة في السيرة النبوية، حيث يورد الرواية مرتبطة بالراوي من الصحابة، وليست رواياته مبوبة حسب الموضوعات والأحداث كغيره، وهؤلاء الرواة هم شاهد الأحداث بأنفسهم، ما يعطيها قيمة تاريخية علمية مهمة.

وبعض تلك الروايات في المسانيد وكتب السنن تحتاج إلى طريقة خاصة لمعرفة الصحيح من الضعيف منها، وللعلماء مناهجهم التي طبقوها في ما كتبوا عن سيرة الرسول ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم ج٣/ ١٣٩٧.
(٢) صحيح مسلم ج٣/ ١٣٩٨.

ولعل من الكتب المهمة في هذا الجانب ما ألفه الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ). في كتابه «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد». [(١)]

كتب السيرة والمغازي

خُدمت سيرة الرسول ﷺ بكتب متخصصة منذ القرن الأول الهجري، فيما عرف بعلم السيرة والمغازي، وطيلة العصور الماضية لم يتوقّف التأليف في حياة الرسول ﷺ الذي بدأ منذ أيام الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم في مدونات مختصرة لأحاديث ذات علاقة بالسيرة النبوية.

ومن أقدم من كتب في سيرة النبي ﷺ عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنه أمه أسماء بنت أبي بكر وخالته أم المؤمنين عائشة (رضوان الله عليهما)، تأهل بين بيت النبوة وبيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في بيت الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة ممن شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ واستقى الأحداث وكثيرٌ من روايته من خالته أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) أمه أسماء بنت أبي بكر، وكانت وفاة عروة بن الزبير رضي الله عنه سنة ٩٢هـ. [(٢)]

---

(١) الهيثمي: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٨هـ.

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤/ ٤٢١؛ وقد قامت سلوى مرسي الطاهر، بإصدار كتاب بعنوان «بدايات الكتابة التاريخية عند العرب أول سيرة في الإسلام، عروة بن الزبير»، أصدرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، جمعت فيها الكثير من مرويات عروة بن الزبير في السيرة من مختلف المصادر.

ومـمن ألف في السيرة من علماء القرن الأول الهجري سعيد ابن المُسيَّب (ت: ٩١هـ) (رحمه الله) الذي عمل على جمع مرويات السيرة، كما فعل الشيء نفسه وهب بن منبِّه (ت: ١١٤هـ) وكذلك أبو المعتمر التميمي (ت:١٤٣هـ)،[١] وابن شهاب الزهري، (ت: ١٢٤هـ)،[٢] وموسى بن عقبة (ت: ١٤١هـ).[٣]

ويعد محمد بن إسحاق (ت: ١٥١هـ)[٤] من أشهر من كتب في سيرة النبي ﷺ. ووصلنا معظم كتابه وقد عاش جزءاً من القرن الأول الهجري وجزءاً من القرن الثاني الهجري، وقد شُرِح كتابه شروحات عدة منها شرح ابن هشام (ت:٢١٨هـ) المشهور بسيرة ابن هشام،[٥] الذي يعد أكثر كتب السيرة شهرةً عبر العصور الإسلامية، وأكثرها انتشاراً، سواء بشكل مخطوط أم مطبوع، وشرح بضعة شروحات أهمها شرح السهيلي (ت:

---

(١) انظر: أبو المعتمر التميمي ومروياته في السيرة، رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، من الباحث عبدالعزيز بن محمد العجلان، للعام الجامعي ١٤٢٢هـ. أشرفتُ عليها في حينه.

(٢) جمع د. محمد عواجي مرويات الإمام الزهري في المغازي في مجلدين، نشرتها عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، في طبعة أولى، ١٤٢٥هـ.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٦/ ١١٤.

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار، انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب، ج٩/ ٣٨.
وقد أخرج كتابه وحققه محمد حميد الله، ط٢،قونية تركيا، مؤسسة الوقف الخيرية ١٤٠١هـ.

(٥) هو محمد بن عبدالملك بن هشام الحميري، وانظر مقدمة تحقيق، ص ١٧، بقلم مصطفى السقا وآخرون.

٥٨١هـ)[١] في كتاب «الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام»، كما أن الواقدي له كتاب جيد وهام في المغازي يعد ثرياً جداً بما احتوى من معلومات (ت: ٢٣٠هـ).

كما دوّن عمر بن شيبة (ت: ٢٦٢هـ)[٢] في كتابه تاريخ المدينة عن حياة رسول الله ﷺ وعن حياة الخلفاء الراشدين.

وكذلك جمع أبو بكر بن أبي شيبه (ت: ٢٣٥هـ) وهو من شيوخ البخاري في كتاب المغازي من مصنفه قسماً كبيراً ومهماً من أخبار السيرة،[٣] وهذا مما يؤكد أن الكتابة في السيرة النبوية كانت مصاحِبةً للتأليف في السنّة النبوية، وإن كان كل فن منها عرف بمؤلفات مستقلة وموسوعات كثيرة يصعب حصرها.

ويعد كتاب الصالحي الشامي (ت:٩٤٢هـ)[٤] «سبل الهدى والرشاد» من أوسع ما كتب عن السيرة، وقد أشار في مقدمته إلى أنه استفاد من ألف كتاب في السيرة وغيرها كمصادر لكتابه،

---

(١) أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد. انظر: ترجمته، ص ٥، بقلم المحقق طه عبدالرؤوف سعد.

(٢) هو عمر بن شيبه النميري البصري؛ انظر ترجمته بقلم محقق كتابه فهيم محمد شلتوت، في مقدمة الكتاب.

(٣) انظر: المغازي لابن أبي شيبة، أبي بكر عبدالله بن محمد، دراسة وتحقيق وتخريج الدكتور عبدالعزيز بن إبراهيم العُمري، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ.

(٤) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، وقد طبع في عشرة أجزاء حققه عدد من العلماء بإشراف ونشر لجنة إحياء التراث الإسلامي في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وهو من أفضل ما نشره المجلس.

وقد ألفه في القرن العاشر الهجري، فتهيّأت له الاستفادة من مؤلفات كثيرة سبقته.

وقد أُلفت كتب متعددة في اختصار سيرة الرسول ﷺ من ذلك سيرة النبي ﷺ المختصرة، لأبي الحسين بن زكريا، ومجالس في سيرة النبي ﷺ لابن رجب الحنبلي، وجوامع السيرة لابن حزم الأندلسي، والرسالة الكاملية في السيرة النبوية لابن النفيس، ومختصر سيرة النبي ﷺ للمقدسي، والمقتفى من سيرة المصطفى ﷺ للحسن بن حبيب.(١) و«وسيلة الإسلام بالنبي عليه السلام» لابن قنفذ القسَّنطيني.(٢)

---

(١) ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت، ٧٧٩هـ)، المقتفى من سيرة المصطفى، تحقيق مصطفى الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٦هـ.
ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ). جمهرة أنساب العرب، راجعه لجنة من العلماء، ط١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ.
ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن الحنبلي (ت٧٩٥، هـ) مجالس في سيرة النبي، تحقيق ياسين محمد السواس ومحمود الأرناؤوط ط١ دار ابن كثير دمشق ١٤٠٨هـ
ابن زكريا، أبي الحسين أحمد بن فارس، سيرة النبي ﷺ المختصرة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط١ ،عالم الكتب، بيروت ١٤٠٩هـ.
ابن النفيس، علي علاء الدين بن أبي الحزم القرشي،الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، تحقيق عبد المنعم عامر وأحمد هريدي، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة ١٤٠٨هـ.
المقدسي، عبد الغني بن عبد الواحد الجماعيلي الحنبلي (ت، ٦٠٠ هـ) (الدرة مختصر سيرة النبي وسيرة أصحابه العشرة، حققه، خالد عبد الرحمن الشايع، ط ٢ دار بلنسية ١٤٢١هـ.

(٢) القسنطيني: أبي العباس أحمد بن الخطيب الشهير بابن قنفذ، وسيلة الإسلام بالنبي عليه السلام، تعليق سليمان الصيد المحامي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت١٤٠٤،هـ.

وقد صنفت مؤلفات دقيقة في قضايا معينة تخص السيرة مثل كتاب المقريزي «إمتاع الأسماع بما ورد للرسول ﷺ من الأبناء والحفدة والمتاع»،[1] و(القرمانية) قاعدة في ذكر ملابس النبي ﷺ وسلاحه لابن تيمية.[2] كما وضعت كتب في أحذية الرسول، وفي شَعْر الرسول، وفي كُتَّاب الرسول وفي شعراء الرسول وفي عهوده وفي عماله وفي رسله وفي تركته،[3] ومن ذلك «الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة» ﷺ للسيوطي،[4] وكتاب الوفاة للنسائي[5] وغير ذلك.[6]

كما تعددت المؤلفات والأبحاث عن كُتّاب السيرة ومنهجيتهم في تدوينها.[7]

---

(١) تقي الدين أحمد بن علي. انظر: تحقيق محمود محمد شاكر للكتاب، نشر لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، د. ت.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم، (القرمانية) قاعدة تتضمن ذكر ملابس النبي ﷺ وسلاحه ودوابه ـ، ط١، دار أضواء السلف، الرياض١٤٢٢هـ.

(٣) من ذلك ما كتبه حماد بن إسحاق، تركة النبي ﷺ، دراسة وتحقيق، د. أكرم ضياء العمري، ط١، المدينة المنورة، ١٤٠٤هـ.

(٤) السيوطي: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن، الرياض الأنيقة في أسماء خير الخليقة، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ.

(٥) النسائي: أحمد بن علي بن شعيب، كتاب الوفاة وفاة النبي ﷺ، تحقيق دار الفتح، ط١، الشارقة ١٤١٥هـ.

(٦) للمزيد من التفاصيل، راجع فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، دار القلم، دمشق، ١٤٢٥هـ.

(٧) للمزيد من التفاصيل انظر: عبدالرحمن السنيدي،، السيرة النبوية عند=

المؤلفات الحديثة

كثرت المؤلفات الحديثة في سيرة المصطفى ﷺ بمختلف لغات العالم وباستمرار دونما توقف، ولاشك أن هناك من يؤلف في هذه الساعة في سيرة النبي ﷺ وجوانب منها. ومن المؤلفات الحديثة التي يمكن أن يستفيد منها القارئ الشاب كتاب «من معين السيرة النبوية» للشيخ صالح الشامي،[١] وكتاب الدكتور أكرم العُمري «السيرة النبوية الصحيحة»[٢] وهو كتاب مميز يُقعِّد للكتابة في السيرة ويؤرخ لها ويعتمد على ما صح من الروايات في جمعه لها وتحليله، وكتاب «السيرة النبوية» لأبي الحسن الندْوي[٣] وموضوعاته وتحليلاته وترتيبه نفيس جداً وهو كتاب شامل في مختلف جوانب السيرة، و«دراسات في السيرة» للدكتور عماد الدين خليل،[٤] ويتناول جوانب محددة وهو غير

= البيهقي ـ مع دراسة مقارنة لأبرز مؤرخي السيرة المعاصرين له في المشرق خلال القرن الخامس الهجري ـ ، ط١،عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٢٦هـ.

(١) صالح أحمد الشامي، من معين السيرة، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

(٢) د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ط٣، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

(٣) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ط١٠، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٥هـ.

(٤) د. عماد الدين خليل، دراسات في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٥، ١٤٢٢هـ.

شامل، و«السيرة النبوية دروس وعبر» لمصطفى السباعي[1] وهو محدد وفي الدروس والفقه مختصر نافع، ويعد كتاب الدكتور مهدي رزق الله «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية»،[2] موسوعياً شاملاً لا غنى لمعلمي السيرة النبوية عنه واختصاره «صفوة السيرة،[3] وهناك كتاب مشهور تداولته الأيدي وانتشر بكثرة وترجم إلى لغات عدة، وهو كتاب المبارك فوري «الرحيق المختوم».[4] جيد، و في تصوري أن ما سبق ذكره من كتب أفضل منه في مجاله، وإن كان من أكثرها انتشاراً. وما كتبه الدكتور محمد أبو شهبة، «السيرة النبوية في ضوء القـرآن والسنـة»،[5] وما كتبه الدكتور مهدي رزق الله في كتابـه «صفـوة السيـرة النبويـة»، وما كتبه محمد الصويـاني في كتابـه «السيـرة النبويـة كما جاءت في الأحـاديث الصحيحة»،[6]

---

(١) مصطفى السباعي، السيرة النبوية، دروس وعبر، ط٩، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ.

(٢) مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ط١، مركز الملك فيصل، الرياض، ١٤١٢هـ.

(٣) مهدي رز الله أحمد، صفوة السيرة النبوية، دار إمام الدعوة، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ.

(٤) صفي الرحمن المبارك فوري، الرحيق المختوم، دار الوفاء، المنصورة، دون تاريخ.

(٥) عثمان محمد الخميس، كنوز السنة، ط٢، غراس، الكويت، ١٤٢٨هـ.

(٦) محمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، قراءة جديدة، ط٣، العبيكان للنشر، الرياض، ١٤٣٠هـ. كما أن للمؤلف نفسه=

وكذلـك كتـاب الصـادق الأميـن لمحمد لقمـان السلفـي.[1]

كما وجدت ملخصات حديثة مختلفة للسيرة، منها خلاصة السيرة المحمدية لمحمد رشيد رضا،[2] وموكب السيرة النبوية لمحمد المختار ولد أباه.[3]

ويأتينا الباحثون كل يوم بكتب جديدة في مجال السيرة، وقد كتب بعض الباحثين في قضايا معينة مثل وثيقة المدينة لأحمد الشعيبي، وكتاب النبي لمحمد مصطفى الأعظمي، وكتاب الوحي لأحمد عبد الرحمن عيسى، وشعراء حول الرسول لعبد الله محمد أبو داهش، ومحاولات اغتيال النبي ﷺ لعبد المنعم الهاشمي، وغير ذلك من الموضوعات التي يصعب حصرها. كما كتب عدد من المستشرقين في السيرة ولا أستحسن قراءتها لعامة الناس[4] فكثير منهم وإن كتب بطريقة

= كتاب بعنوان «القصيمية» دراسة نقدية لنصوص السيرة النبوية، كتبه في بداية عمله في السيرة، واقتصر على مرويات جزء من العهد المكي حتى الهجرة الثانية إلى الحبشة (دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ).

(١) السلفي، محمد لقمان، الصادق الأمين، دار الداعي، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ.

(٢) ولد أباه، محمد المختار، موكب السيرة النبوية، ط١، دار إحياء التراث، الدوحة قطر، ١٤٠٥هـ.

(٣) السلفي، محمد لقمان، الصادق الأمين، دار الداعي، الرياض، ط١ ١٤٢٧هـ.

(٤) راجع كتاب الرسول في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، ط٢ دار المنارة، جدة، ١٤٠٦هـ. وعماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، دار الثقافة، الدوحة ١٤١٠هـ. =

حسنة إلا أن قصور نظرهم وعدم اعتقادهم بنبوة محمد ﷺ تجعلهم غير دقيقين في حديثهم كما أن كثيراً منهم بعيدون عن المنهج العلمي، ويسيؤون الأدب في حق النبي ﷺ، كما أساؤوا الأدب مع أنبيائهم قبل ذلك.

كما أن هناك كتباً متخصصة في حوادث معينة من السيرة النبوية، أو في مرويات لحادثة أو غزوة بذاتها، وقد أُخرجت مجموعة كبيرة من الأبحاث حول مرويات السيرة كرسائل علمية من قبل الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وغيرها، ومن ذلك ما أخرجه عدد من الباحثين، حول موضوعات معينة سبق ذكر عدد منها على شكل رسائل وأبحاث علمية ضمن الحديث عن كيفية دراسة السيرة النبوية.[1]

وتكثر المؤلفات الخاصة بحوادث معينة، ففي كل غزوة العديد من الكتب التي يصعب حصرها، وهناك عدد من المؤلفات في الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية من السيرة مثل ذلك، وفي الحوادث الأخرى كالهجرة أو الإسراء

= وعبد المتعال الجبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

وجوستاف بفانموللر Gustave Pfannmuller (مستشرق ألماني) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ترجمة محمود حمدي قنديل، ط١ مكتبة ابن تيمية، البحرين، ١٤٠٦هـ.

(١) انظر موضوع كيفية دراسة السيرة وقائمه المصادر والمراجع من هذا الكتاب.

والمعراج أو الغزوات أو حجة الوداع أو الوفاة، ما يصعب حصره سواء منها ما ألف قديماً أو ما ألف حديثاً.

وقد تبع ذلك عدد من المؤلفات في فقه السيرة، في مقدمتها فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي،[1] وفقه السيرة للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي[2] وفقه السيرة لمحمد منير الغضبان[3] وفقه السيرة للدكتور زيد بن عبد الكريم الزيد،[4] وهو من أحدثها، رائع في بابه واسع في محتواه، وغيرها من المؤلفات في فقه السيرة مما يصعب حصره.

كما أن جغرافية السيرة حظيت ببحوث ودراسات مختلفة، وخصوصاً الحديث منها لمعرفة الأماكن المرتبطة بالسيرة وحوادثها، منها ما كتبة عاتق البلادي في معجم الأماكن الواردة في السيرة النبوية وفي أودية مكة المكرمة، وكذلك ما كتبه محمد الياس عبد الغني عن بيوت الصحابة حول المسجد النبوي، وكذلك ما سطره عماد الدين خليل في أطلس السيرة

(١) محمد الغزالي، فقه السيرة، ط٧، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٦م.

(٢) محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨م.

(٣) محمد منير الغضبان، فقه السيرة النبوية، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

(٤) د. زيد بن عبدالكريم الزيد، فقه السيرة، ط٣، دار التدمرية، الرياض، ١٤٢٨هـ.

النبوية، وما رسمه سامي المغلوث في الأطلس التاريخي لسيرة النبي ﷺ.[1]

المؤلفات عن الشمائل النبوية

من المعروف أن هناك موضوعات في شمائل الرسول ﷺ داخل كتب الحديث، وكتب السيرة مبثوثة فيها.

كما أنه قد أفردت مؤلفات خاصة في الشمائل والدلائل بعضها أستُلَّت من الموسوعات الحديثة وبعضها أُلف أصلاً في هذا الباب.

ومن أكثر المؤلفات عن الشمائل النبوية انتشاراً كتاب «الشمائل النبوية» للترمذي، وقد حققه وخرَّج أحاديثه ناصر الدين الألباني رحمه الله،[2] و«كتاب الأنوار على شمائل النبي المختار»، للبغوي (ت٥١٦هـ)،[3] وكتاب ابن حبان (ت: ٣٦٩) «أخلاق النبي»،[4] وكتاب ابن حجر الهيثمي

---

(١) المغلوث، سامي بن عبدالله بن أحمد، الأطلس التاريخي لسيرة النبي ﷺ، ط٢، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٤هـ.

(٢) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، مختصر شمائل النبي ﷺ، اختصار وتحقيق ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية بالأردن ومكتبة المعارف بالرياض، ط٢، ١٤٠٦هـ، وكذلك طبعة أخرى للشمائل النبوية، تحقيق ماهر ياسين فحل، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٢١هـ.

(٣) البغوي، الحسين بن مسعود، الأنوار في شمائل المختار، تحقيق إبراهيم اليعقوبي.

(٤) البيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين، الدلائل النبوية، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.

(٩٧٤هـ)، أشرف الرسائل إلى فهم الشمائل.[١] وكتاب أوصاف النبي ﷺ للإمام الترمذي،[٢] وغيرها من كتب الشمائل التي ربما استخرج بعضها من كتب السنن والأحاديث.

وقد تبعها عدد ضخم من المؤلفات الحديثة في هذا الباب أكثر ترتيباً وتحقيقاً،[٣] من ذلك ما يتعلق بشخصية الرسول ﷺ مثل ما كتبه بسام عطية أحمد فرج (نبينا ﷺ رأي العين) ـ دراسة مستمدة من القرآن وصحيح السنة النبوية ـ،[٤] وكذلك ماكتبه محمد علي الهاشمي عن شخصية الرسول ﷺ ودعوته في القرآن الكريم.[٥] وما كتبه عقيل بن حسين عقيل بعنوان (محمد ﷺ من وحي القرآن).[٦]

---

(١) تحقيق وتعليق سميح عباس، ط٢ دار الجيل بيروت (د.ت).

(٢) شهاب الدين بن حجر الهيثمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، تحقيق أبو الفوارس أحمد بن فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

(٣) انظر: صالح الشامي من معين الشمائل، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٨هـ، وكذلك أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبدالعزيز الحداد، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٦هـ ونظرة النعيم: لصالح بن حميد وصالح ملوح وآخرين.
وكذلك محمد جميل زينو، الشمائل المحمدية ط١١، مكة المكرمة، (د.ت)

(٤) فرج، بسام عطية أحمد، نبينا رأي العين ـ دراسة مستمدة من القرآن وصحيح السنة النبوية ومزينة ببعض الفوائد العلمية والتربوية، ط٢، دار الفاروق، عمان ١٤٣١هـ.

(٥) الهاشمي، محمد علي شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ط٤، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٢٤هـ.

(٦) عقيل، عقيل حسين، محمد من وحي القرآن، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٣٢هـ.

وهناك كتب متعلقة بدلائل النبوة[1] ومعجزات الرسول ﷺ. منها ما ألفه البيهقي في «دلائل النبوة»، وفيه أحاديث كثيرة تحتاج إلى شيء من التحقيق والتخريج و«دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)[2] و«دلائل النبوة» لابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ). و«الخصائص الكبرى» للسيوطي، و«الشفاء تعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (ت:٥٤٤هـ)،[3] وكتاب خصائص النبي ﷺ لسراج الدين أبي حفص عمر بن علي المشهور بابن الملقن الشافعي(ت٨٠٤هـ).[4]

وكتاب اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ لمحمد بن عبدالله الخيضري.[5]

---

(١) أبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دلائل النبوة، تحقيق عبد البر عباس ومحمد رواس قلعة جي، دراسات ابن كثير، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

(٢) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) اليحصبي، القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

(٤) ابن الملقن الشافعي، سراج الدين أبي حفص عمر بن علي، خصائص النبي ﷺ، تحقيق أبي عبدالرحمن عادل بن سعد، ط١، مكتبة أبي حذيفة السلفي، القاهرة ١٤٢١هـ. وانظر من المؤلفات الحديثة: العبادي، عبدالله عبد الرحيم، خصائص سيد المرسلين منذ مبعثه إلى يوم الدين، ط١، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٢٧هـ.

(٥) الخيضري، محمد بن محمد بن عبدالله، اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ، تحقيق محمد الأمين بن محمد محمود بن أحمد الجكني، ط١، دار البخاري، المدينة المنورة وبريدة ١٤١٥،هـ. =

وهي مؤلفات شاملة تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحقيق والتخريج لما ينسب للرسول ﷺ.

كتب الطبقات

وتعد كتب طبقات الصحابة خصوصاً وكتب الطبقات عموماً من أهم مصادر السيرة، ومنها «الطبقات الكبرى» لابن سعد (ت: ٢٤٠هـ)،[١] حيث يحتوي الجزء الأول من هذا الكتاب سيرة النبي ﷺ. وفي هذا القسم روايات في الشمائل انفرد بها ابن سعد، كما توجد روايات مرتبطة بأصحاب الرسول ﷺ وطبقاتهم في الترجمة لهم ينفرد بها المؤلف؛ حيث كان ابن سعد متقدماً في التأليف في طبقات أصحاب رسول الله ﷺ، كما يعد كتاب الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤٢هـ) «فضائل الصحابة»[٢] من كتب التراجم الغنية بالروايات المتعلقة بالسيرة، و«كتاب التاريخ» ليحيى بن معين (ت: ٢٣٣هـ)،[٣] وكتاب ابن عبدالبر (ت: ٤٦٣هـ)

= وانظر من المؤلفات الحديثة: العبادي، عبدالله عبد الرحيم، خصائص سيد المرسلين منذ مبعثه إلى يوم الدين، ط١، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٢٧هـ.

(١) محمد بن سعد، كاتب الواقدي، الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت.

(٢) الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله عباس، ط١، جامعة أم القرى، ١٩٨٣م.

(٣) يحيى بن معين بن عوف بن زياد بن بسطام، يحيى بن معين وكتابه التاريخ، ط١، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، مكة، ١٣٩٩هـ.

«الاستيعاب في معرفة الأصحاب»[1] وكذلك كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) من المصادر الثرية في السيرة، كما أن كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلانى (ت: ٨٥٢هـ)[2] كتاب موسوعي في دراسة السيرة من خلال حياة الصحابة ﷺ.

بالإضافة إلى مختلف كتب الأعلام ومنها «سير أعلام النبلاء» للذهبي (ت:٨٤٧هـ)[3] و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (ت: ٥٧١هـ)،[4] وكتب رجال الحديث مثل «تهذيب التهذيب» لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ)،[5] و«تهذيب الكمال» للمزي (ت:٧٤٣هـ)،[6] ومختصراتها، وغير ذلك من كتب مختلف التراجم.

---

(١) أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، حاشية علي الإصابة، القاهرة، ١٣٢٨هـ.

(٢) شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، دار السعادة، القاهرة، ١٣٢٨هـ.

(٣) الحافظ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، دار الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ.

(٤) ابن عساكر، أبي القاسم علي بن حسن، صورة من نسخة الكتاب في ١٩ مجلداً أصدرتها مكتبة الدار بالمدينة من المخطوط الأصلي في المكتبة الظاهرية بدمشق، ١٤٠٧هـ.

(٥) شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، دار الكتاب العثمانية، حيدر أباد، الهند، ١٣٢٨هـ.

(٦) جمال الدين أبي الحجاج المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ط١، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٢هـ.

كتب التاريخ العام

إن مؤلفي كتب التاريخ العام ربطوا قلوب الأمة وعلمائها من خلال موسوعاتهم التاريخية بالتوحيد للخالق تبارك وتعالى، ومن أمثال هؤلاء الطبري (ت: ٣١٠هـ) في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»،[١] وابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) في «الكامل»،[٢] وابن كثير (ت:٧٧٤هـ) في «البداية والنهاية»،[٣] والذهبي (ت: ٨٤٧هـ) في «تاريخ الإسلام»[٤] وابن خلدون (ت: ٨٠٩هـ) في «العبر»[٥] وغيرهم، حيث تبدأ تلك المؤلفات في الغالب بالحديث عن بدء الخلق وعن خلق آدم وعن الأنبياء السابقين، ثم تأخذ في الحديث عن رسول الله ﷺ وأحداث عصره مسلسلة حسب السنوات الهجرية. وقد استخرجت من بعض هذه الكتب أقسام وكتب كاملة في السيرة النبوية مثل السيرة النبوية عند

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تاريخ الطبري، ط١، المطبعة الحسينية، القاهرة.

(٢) أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ.

(٣) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، الطبعة الثالثة، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٨م.

(٤) أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة، القاهرة.

(٥) عبدالرحمن بن محمد الحضرمي، تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩١هـ.

الطبري،[1] والسيرة النبوية لابن كثير،[2] وكذلك السيرة النبوية للذهبي وغيرهم.

كتب الأدب

كتب الأدب العربي تحوي جملة من أخبار السيرة النبوية، وخصوصاً ما يرتبط بها من شعر أو خطب أو أمثال أو حكم، أو غير ذلك مما يتصل بالسيرة في جانب اللغة والأدب والبلاغة والحكمة. ففي مجال الخطب مثلاً نجدها أول ما تقدم خطباً من خطب الرسول ﷺ لبلاغته وحكمته وتميزها عن بقية الخطب.

كما أنها تذكر الأمثال والحكم التي وردت عن رسول الله ﷺ وهو أبلغ الناس ﷺ، وبعضٌ منها أورد قصصاً محددة أخذت من سيرة النبي ﷺ في مجال استشهاد معين بالكرم أو الرحمة أو الحكمة أو السياسة أو غير ذلك.

وكذلك في موسوعات الشعر نجد قصائد لشعراء الرسول ومناسباتها، ولعل من أشهر الكتب في هذا المجال، ما كتبه ابن عبد ربه (ت: ٣٢٨هـ) في «العقد الفريد»،[3] والنويري (ت:

---

(١) الإمام محمد بن جرير الطبري، السيرة النبوية لابن جرير الطبري، تحقيق جمال بدران، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٤هـ.

(٢) الإمام أبو الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٦هـ.

(٣) الفقيه أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت.

٧٣٣هـ) في «نهاية الأرب»،[١] والقلقشندي في صبح الأعشى (ت: ٨٢١هـ) وغيرهم.

كما تعد دواوين الشعراء وخصوصاً شعراء الرسول ﷺ كديوان حسان بن ثابت وغيره مصادر مهمة للسيرة.

كتب السياسة الشرعية

هي من الكتب المهمة في الفقه الشرعي، وخصوصاً ما يرتبط بإدارة الدولة وسياسة الأمة، وشواهدها في الغالب من أحداث السيرة النبوية والقياس عليها، ومن حوادث عصر الراشدين، وأمثلتها كثيرة فيما أُلِّف في الأحكام السلطانية، مثل ما كتبه الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) في كتاب الأحكام السلطانية،[٢] وأبي يعلى الفراء (ت: ٤٥٨هـ) في كتابه «الأحكام السلطانية»،[٣] وما كتبه ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)،[٤] وغيرها. ولعل من أهم الكتب في مجال السياسة الشرعية من

(١) شهاب الدين أحمد بن عبدالله، نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٣٩٥هـ.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية، دار الفكر، بيروت.

(٣) محمد بن الحسين الفراء، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط٣، دار الفكر، لبنان، ١٣٩٤هـ.

(٤) أحمد بن عبد السلام الحراني، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ج٤، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م.

خلال السيرة النبوية ما كتبه الخزاعي (ت: ٧٤١هـ) في كتابه «تخريج الدلالات السمعية»،[١] وشرحه للكتاني في كتابه المشهور «التراتيب الإدارية»،[٢] أو نظام الحكومة النبوية. أما المؤلفات الحديثة في السياسة والإدارة في الإسلام فتحوي مادة ثرية في هذا الجانب.

ويمكن أن يلحق بها كتب الأموال مثل كتاب «الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ)،[٣] و«الخراج» لأبي يوسف (ت: ١٨٢هـ)،[٤] وكتاب «الأموال» لابن زنجوية (ت: ٢٥١ هـ)،[٥] و«الخراج» ليحيى بن آدم (ت: ٣٠٣هـ)، و«الاستخراج في أحكام الخراج» لابن رجب الحنبلي (ت: ٢٠٢هـ). وغيرها من الكتب المتخصصة التي اعتمدت شواهدها في الإدارة المالية للدولة الإسلامية من السيرة النبوية.

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد التلمساني، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمود سلامة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٠١هـ.

(٢) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الفاسي، نظام الحكومة النبوية، المسمى التراتيب الإدارية، دار الكتاب العلمي، بيروت.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، ط٢، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٥هـ.

(٤) القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، ط٥، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٦هـ.

(٥) المرجع السابق.

كتب الأنساب

عرفت كتب الأنساب كمصادر مستقلة في موضوعها، ولعل من أشهرها «أنساب الأشراف» للبلاذري (ت: ٢٧٩هـ)[١] الذي حوى كثيراً من أخبار الصحابة وأبنائهم ومشاركتهم مع الرسول ﷺ في حياته، وكذلك زوجاته ﷺ وعلاقات المصاهرة فيما بينهم وبين الرسول ﷺ ومع بعضهم، وكذلك كتاب «نسب قريش» لمصعب الزبيري (ت: ٢٣٦هـ)،[٢] ومن كتب الأنساب الأخرى التي تعرضت للعرب عموماً، ومن خلال ذلك للمهاجرين والأنصار وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ مثل «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ت: ٤٥٦هـ)،[٣] و«الأنساب» للسمعاني (ت: ٥٦٢هـ)،[٤] وغيرهما مما يصعب حصره.

كتب المعارف العامة

وهي كتب حاوية جمعت أخباراً متفرقة، فيها ما يفيد

(١) أبو الحسن حمد بن يحيى بن عامر، أنساب الأشراف، الجزء الأول تحقيق محمد ضمر الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.

(٢) أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيري، من أنساب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٣) أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٤، دار المعارف، القاهرة.

(٤) أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور، الأنساب، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ط١، منشورات محمد أمين دمج، بيروت، ١٤٠١هـ.

الباحث في علم السيرة وما يذكره بحدث معين أو نسب ذا صلة بالسيرة ورجالها، ولعل من أشهرها المعارف لابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ)،[١] و«المحبَّر» لابن حبيب (ت: ٢٤٥هـ)،[٢] ومقدمة ابن خلدون وغيرها من موسوعات المعارف العامة.

كتب البلدانيات

وقد تكون كتباً ألفت أصلاً في تاريخ البلدان وأهمها ما ألف في تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد تعرضت لأجزاء كبيرة من السيرة، ولعل من أشهرها «وفاء الوفا في تاريخ دار المصطفى» للسمهودي (ت: ٩١١هـ)،[٣] و«تاريخ المدينة» لعمر بن شيبة النميري (ت: ٢٦٢هـ)،[٤] و«الدرة الثمينة في أخبار المدينة»،[٥] لابن النجار (ت ٦٤٣هـ)، والعباسي في

(١) أبو محمد عبدالله بن مسلم، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط٢، القاهرة.

(٢) أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية، كتاب المحبر، تحقيق أيلزه، ليختن شتاين، دار الآفاق، بيروت.

(٣) عبدالرحمن بن محمد الحضرمي، مقدمة ابن خلدون، ط٤، دار الهلال، بيروت، ١٣٩٨هـ.

(٤) نور الدين علي بن أحمد، وفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠١هـ.

(٥) أبو زيد عمر بن شيبة النميري البصري، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، نشر السيد حبيب محمود أحمد، المدينة المنورة.

«عمدة الأخبار في مدينة المختار»،[1] والمراغي (ت: ٨١٦هـ) في «تحقيق النُّصرة في تلخيص معالم دار الهجرة»،[2] والمطري (ت: ٧٤١هـ) «التعريف بما أَنِسَت الهجرة من معالم دار الهجرة»، والفيروز أبادي (ت٨٢٣هـ) «المغانم المطابة في معالم طابة»،[3] والسخاوي (ت:٩٠٢هـ) في «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» وابن زبالة (ت: ١٩٩هـ) في «أخبار المدينة».[4]

وكذلك الأزرقي (ت:٢٥٠هـ) في «أخبار مكة»،[5] والفاسي (ت:٨٣٢هـ)، في «كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»،[6] والفاكهي (ت ق ٣هـ) «أخبار مكة في قديم الدهر

---

(١) الإمام الحافظ محمد بن محمود، أخبار مدينة الرسول ﷺ، تحقيق صالح جمال، ط٣، دار الثقافة، مكة ١٤٠١هـ.

(٢) أحمد بن عبدالحميد، عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق محمد الطيب الأنصاري وحمد الجاسر.

(٣) زين الدين أبو بكر بن الحسين بن عمر، تحقيق النصرة في تلخيص معالم دار الهجرة، تحقيق محمد عبد الجواد، ط٢، المكتبة العلمية بالمدينة، ١٤٠١هـ.

(٤) محمد بن أحمد، التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ١٤٠٢هـ.

(٥) أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٩هـ.

(٦) أبو الطيب التقي محمد بن أحمد الحسني، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد محمود الطناحي، نشر محمد سرور الصبان، القاهرة، ١٣٨٨هـ.

وحديثه»،[1] وابن فهد (ت: ٨٨٥هـ) في «إتحاف الورى في أخبار أم القرى»،[2] وابن فهد الهاشمي في غاية المرام في أخبار البلد الحرام.[3]

ويدخل في هذا السياق المعاجم الجغرافية العامة مثل «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ)،[4] والحميري (ت: ٧٥٠ تقريباً) في «الروض المعطار في خبر الأقطار» وغيرها[5] من كتب البلدانيات ومعاجم المعالم الجغرافية.

كتب الفتوح

ويأتي في مقدمتها «فتوح البلدان» للبلاذري

---

(١) أبو عبدالله محمد بن إسحاق، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق، د. عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ط١، مكتبة النهضة، مكة، ١٤٠٧هـ.

(٢) محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد، إتحاف الورى في أخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، ١٩٧٧م.

(٣) عز الدين عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي، غاية المرام بإخبار البلد الحرام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ.

(٤) ياقوت شهاب الدين أبي عبدالله، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

(ت: ٢٧٩هـ)[(١)] و«فتوح الشام» للأزدي (ت: ٢٣١هـ)،[(٢)] وإن كانت بعض الكتب المؤلفة في الفتوح تخصصت بمنطقة بعينها إلا أنها من خلال الحديث عن المشاركين فيها تقوم بالحديث عن مشاركة هؤلاء الصحابة في حياة الرسول ﷺ أحياناً، كما أنها تتحدث عن إخبار الرسول ﷺ بفتوح تلك البلدان في المستقبل، ومناسبة حديثه، والوقائع المصاحبة لذلك الحديث الذي يبشر به الرسول ﷺ الأمة في وقت مبكر من حياته.

وفي ختام الحديث عن مصادر السيرة النبوية لا بد من الإشارة إلى وجود دراسات مستقلة عن هذه المصادر ولعل من أفضلها ما كتبه الدكتور فاروق حمادة ـ أثابه الله ـ في كتابه المعنون «مصادر السيرة النبوية وتقويمها»،[(٣)] وخصوصاً الطبعة الأخيرة من الكتاب التي احتوت على زيادات مهمة ومفيدة، ولعل القارئ يطلع عليها لمزيد من المعرفة بالمؤلفات في السيرة والسنة على وجه الخصوص وفي أحداث السيرة والخصائص النبوية وغيرها وما استجد منها.

---

(١) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

(٢) محمد بن عبدالله، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبدالمنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٨٠م.

(٣) انظر: د. فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، طبعة دار القلم الأولى ودمشق، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م. وانظر: د. أكرم ضياء العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج١/ ٤٧.

كما أن من المفيد أن نذكر أن مصادر السيرة يختلف بعضها عن الآخر في تحري الدقة في رواياتها وأسلوبها في التصنيف والترتيب للأحداث، كما أن المتقدم من المؤلفين إذا عرف سنده أولى من غيره، علماً أن المتأخرين من المؤلفين في الغالب عالة على من سبقهم، إلا أن الكثير من المتأخرين أجادوا الجمع والتصنيف والترتيب والشرح والأخذ عمَّن سبقهم وطرح الموضوعات بأساليب معاصرة وطرق عرض حديثه، ودراسة لفقه الحدث والربط بينه وبين الواقع.

أحوال العرب في العصر الجاهلي

ببعثة النبي ﷺ سطع النور وانقشع الظلام وساد التوحيد والعلم والمعرفة، والحق والعدل، ولذلك عرف ما قبل الإسلام بالعصر الجاهلي تمييزاً له. ولمعرفة فضل الإسلام على العالم عامة والعرب خاصة، لا بد من معرفة الأحوال قبيل الإسلام في المجالات كافة، إذا إن الإسلام جاء مهيمناً على الحياة ليس على المسار الديني فحسب، بل على المسار الدنيوي، بأخلاقه ومعاملاته وعاداته وسائر تشريعاته وسلوكياته، ولما كانت الجزيرة العربية عامة هي مسرح أحداث السيرة بالدرجة الأولى، فإنه لا بد من الاطلاع على أوضاعها، ومعرفة أحوالها قبل مبعث النبي ﷺ. فبلاد العرب من الناحية الجغرافية شبه جزيرة كبرى، تحيط بها البحار من جهاتها الثلاث، الغربية والجنوبية والشرقية، وسطها صحراء قاحلة محدودة المياه والموارد، وإن وجدت مناطق حضرية داخلها فهي جِدُّ محدودة، مقارنة

بمساحتها الكبرى، إلا أنها تعد مناطق واحات زراعية منتجة، كما وجد في جنوبها منطقة اليمن وعُمان وهما مناطق جبلية زراعية معتدلة إلى حد ما، صعبة التضاريس كثيفة السكان، وأهم مناطقها وأقاليمها ما يلي:

الحجاز

وهي منطقة جبلية تمتد من جنوب بلاد الشام إلى أطراف اليمن، سميت بذلك لحجزها بين تهامة ونجد، قراها قليلة الزرع والماء، سوى ما عرف عن الطائف، أهم مدنها مكة المكرمة ثم الطائف، ويليها يثرب، وخيبر، وتيماء، ووادي القرى، وفَدَك وغيرها.

نجد

وتقع إلى الشرق من الحجاز، وتمتد جنوباً إلى أطراف اليمن وشمالاً إلى صحراء السماوة وبادية الشام وتمتد شرقاً إلى البحرين ومنطقة الأحساء، وهي موطن رئيس لعدد من القبائل العربية المشهورة والشرسة، التي تعتمد على الرعي والفروسية، وتعد من أقسى بلاد العرب صيفاً، وأحسنها ربيعاً، وأقساها شتاءاً، ويرى البعض أن جبال طي وما يقع إلى الشمال منها تتميز عن بقية نجد، وتأتي منطقة القصيم حالياً في وسط نجد.[1]

---

(١) انظر: محمد بن ناصر العبودي، معجم القصيم، ج١/ ٢٣.

العروض (اليمامة)

جنوبي نجد، هو ما يعرف حالياً بمنطقة العارض وتشمل الرياض وما حولها من منطقة اليمامة، ويُدْخِلُها الكثير من الجغرافيين في نجد ويعدونها تبعاً لها وهذا هو الصحيح،(١) وتمتد إلى نواحي حضرموت وعمان.

اليمن

وتقع إلى الجنوب من الحجاز، ويعد القدماء ما كان جنوب الطائف يمناً، بحكم الاتجاه وإن كان ليس كذلك بحكم الجغرافيا والإدارة، وتصل إلى حدود البحر في ناحية الجنوب، وتتصل بتهامة في الغرب، وبحضرموت وعُمان في الشرق، كانت من أغنى بلاد العرب في الزراعة والإنتاج وأكثفها سكاناً، ذات أمطار غزيرة ومنافع متفرقة وذات مدن وتجمعات حضرية، أشهرها صنعاء ومأرب وعدن وغيرها.(٢)

تهامة

وهي الأرض الساحلية المنخفضة غربي الحجاز واليمن، وتشمل مناطق سهول ساحلية اشتهرت بشدة الحر وقلة الماء مع

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، ج٢/ ٩١١؛ انظر: عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، حدود اليمامة، ج١/ ١٧.

(٢) ياقوت الحموي، ج٥/ ٤٤٨.

وجود شيء من الزراعة، ويقيم فيها بعض القبائل للرعي والزراعة المحدودة، وتشمل مدناً ساحلية منها جازان حالياً وما يقع شمالها وجنوبها على الساحل.

البحرين

وتشمل مناطق الواحات الزراعية شرقي العارض ونجد، وشمال عمان وتمتد بالقرب من السواحل الشرقية للخليج، فيها عدد من الحواضر أهمها هجر، وهي كثيفة المياه تسودها الزراعة ويتوافر فيها الإنتاج، إضافة إلى وجود قبلي حولها، يعمل في الرعي وتربية الأنعام، ذات صلة بفارس في كثير من مواردها واقتصادها وثقافتها.[١]

مناخ بلاد العرب

في الجملة؛ صعب شديد الحرارة، سوى المرتفعات الجبلية، قليل الإنتاج سوى ما عرف في اليمن والطائف والبحرين، واليمامة، والواحات القليلة.

عماد حياتها الاقتصادية على الرعي الذي يقل في الصيف، وتسود معظمه قبائل عربية من دون أي تنظيم سياسي يجمعها أو يوحدها، لغتها العربية واحدة وثقافتها متنوعة وأعرافها متقاربة.

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٠، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ٣٤٧.

السكان

عربٌ على وجه الإجمال، سوى أخلاط قليلة من الغرباء في المدن بالدرجة الأولى، ويكثر الفرس في البحرين. وفي اليمن هناك أخلاط محدودة من الفرس والحبشة كانوا يتنازعون السلطة في حواضرها قبيل مبعث الرسول ﷺ.[1]

كانت الكيانات القبلية تشكل الكتل البشرية ومنها القوة العسكرية، تسود بينهم الصلات الحسنة أحياناً، والنزاعات القوية والحروب أحياناً أخرى.

عصبيتهم في ما بينهم قوية وشديدة، يتفاخرون بأصولهم وأنسابهم.

وترجع قبائل العرب إلى قسمين رئيسين؛ ربيعة ومضر، وهم العرب (العدنانية)، ومن أشهر قبائلها قريش وكنانة وأسد وقيس وتميم وهوازن وغطفان. ومن أشهر قبائل ربيعة (القحطانية) بكر وتغلب والأوس والخزرج وجهينة وسليم، وقبائل اليمن وخزاعة.[2]

بعض الكيانات القبلية كانت تسكن الحواضر، وغالبيتها تعيش حياة البادية والترحال. كانت الأمية والجهل تسودان بلاد العرب كافة دون استثناء، ولم يكن أهلها جديرين، بوضعهم الطبيعي في ذاك الزمان، بأي منافسة مع مجاوريهم من أصحاب الحضارات الأخرى كالفرس والروم، وخصوصاً في مجالات

---

(١) انظر: عبد الرحمن الشجاع، اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٧.

(٢) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٧.

التعليم والحضارة كالطب والعمارة وغيرها من مقومات الحضارة المادية البشرية، وكذلك في الجوانب الاقتصادية والعسكرية والسياسية وجوانب القوة المختلفة.

الجوانب الدينية

كان معظم العرب وثنيين تنتشر بينهم عبادة الأصنام ولها مراكز مشهورة في بلاد العرب كافة، يفِدون إليها ليقدموا لها العبادة والقرابين ويطلبون منها العون والمساعدة كل حسب طريقته، ولم تسلم منها منطقة في بلاد العرب على الإطلاق حتى مكة موطن الحنيفية، وقد اشتهرت أصنام معينة لديهم، ورد ذكرها في القرآن الكريم ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم].

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح].

وُجِدت مجموعات من يهود، تركزوا في منطقة المدينة المنورة (يثرب) وفي خيبر، وهي قبائل يهودية مشهورة منهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وكانوا يسكنون المدينة، إضافة إلى يهود خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى، الذين يشكلون تجمعاً لا يستهان به.[١]

---

(١) صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، ج٢/ ١٤.

وانظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي ١ «قبل البعثة»، ط٣، المكتب الإسلامي بيروت، ١٤٠٥هـ.

كما وجد بعض أفراد ومجموعات عرفوا بالموالي، يعودون لأصول غير عربية ـ في الغالب ـ في مختلف المراكز الحضرية، وقد شاركت مختلف الفئات من عرب ويهود وموالٍ في أحداث السيرة النبوية دون استثناء.

وقد انتشرت النصرانية بين بعض القبائل العربية، وكانت نجران من أهم مراكزها في بلاد العرب.(١)

كما عمت النصرانية قبائل معينة مثل قضاعة بحكم قربها من بلاد الروم، وتميم وتغلب وغيرها.(٢)

كانت النصرانية بين العرب كغيرهم قد تعرضت للتحريف وتحولت إلى وثنية، يعبدون فيها عيسى بن مريم ويقدسون قسسهم ورهبانهم ويقدمون أوامرهم على أوامر الله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة].

وقد عرف نصارى العرب بشيء من العلم والثقافة أكثر من غيرهم من المجموعات وتبادلوا ثقافتهم مع الروم وعرب الشام والعراق وخصوصاً المناذرة والغساسنة.(٣)

---

(١) راجع: محمد بن عوض العتيبي، نجران في عصر النبوة والخلافة الراشدة، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ والحضارة، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، للعام الجامعي ١٤٣٠هـ، غير منشورة.

(٢) عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج٣/ ٩٥٧.

(٣) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣/ ١٥٥، ٣٨٧.

الحياة الاجتماعية

وتتأثر كثيراً بالحياة الدينية والمعتقدات السائدة، وقد ساد بين العرب دون استثناء شرب الخمر ولعب الميسر وأكل الربا، كما كان الرجال لا يتورعون عن الزنا، الذي كانت الحرائر تكرهه.[1]

وكان بعض منهم يقتل أولاده خشية إملاق ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء][2] وفي بعضهم نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾ [التكوير].[3]

كما كانوا يكرهون البنات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل].[4]

ولا يورثونهن[5] كما كانوا يعددون الزوجات بلا حدود بل وبعض النساء تُعدِّد الأزواج.[6]

---

(١) راجع: محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢/ ٤.
(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج١/ ١١١٦.
(٣) انظر: ابن كثير وتفسيره، ج٢/ ١٩٦٥.
(٤) انظر: ابن كثير وتفسيره، ج١/ ١٠٥٦.
(٥) ابن كثير، تفسير، ج١/ ١١١٦.
(٦) انظر: جواد علي المفصل، ج٥/ ٥٣٩. وانظر: حديث عائشة عند البخاري، في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ج٦/ ١٣٢.

كما كان بعضهم يلجأ إلى الاستبضاع وهو أن يصيب الرجل امرأة غيره في طهر لم تجامع فيه حتى تحمل منه ولداً نجيباً.[1] وهو ما عرف عندهم بنكاح الرهط؛ وهي المرأة التي يقع عليها جماعة من الرجال، فإذا حملت ألحقت ولدها بأحدهم.[2]

كما كان بعضهم يتزوج امرأة أبيه غصباً عنها وكانوا يجمعون بين الأختين.[3] فجاء التوجيه القرآني: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء].

وقد وجدت بعض الأخلاق والعادات الحسنة عند العرب في الجاهلية منها إكرام الضيف والشجاعة والفروسية وقوة البديهة والذكاء وحب الحرية.[4]

أما في مجال اللغة فكانت العربية في أوج قوتها وفصاحتها وبلاغتها مع اختلاف محدود في اللهجات.[5]

وكان البيان والبلاغة شديدة عندهم.

---

(١) جواد علي، المفصل، ج٥/٥٣٨؛ وانظر: حديث عائشة عند البخاري، في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ج٦/١٣٢.

(٢) انظر: محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب، ج٢/٤.

(٣) انظر: ابن كثير تفسيره، ج١/٤٥٣؛ جواد علي، المفصل، ج٥/٥٢٩.

(٤) انظر: جواد علي، المفصل، ج٥/٤٠٢؛ محمود شكري الألوسي، بلوغ المرام، ج١/٤٦.

(٥) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص ١٢٣.

كان أقوى الشعراء وأخطب الخطباء وأبلغ البلغاء ذوي شرف في كل القبائل بلا استثناء، يتفاخرون بشعرهم ويتنافسون بنثرهم، لغتهم أحسن لغة وأبلغها وأفصحها ومن ذلك جاءت معجزة رسول الله ﷺ في كتاب الله، متحدية لهم في أقوى جانب عندهم، كما كانت بلاغة رسول الله ﷺ في حديثه أروع البلاغة، عجزوا عن مجاراتها أو الإتيان بمثلها ناهيك أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وما تزال معلقاتهم وقصائدهم وخطبهم[1] من أروع ما شهدته اللغة العربية وإبداعها.[2]

(١) انظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة الجزء الأول.

(٢) انظر: أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، ج٢/١٣؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، وجواد علي، المفصل، ج٩/٢٥٠.

أحوال العالم الدينية في العصر الجاهلي

لا شك أن العالم كبير وواسع ويصعب الإحاطة به على وجه العموم، وبالدرجة الأولى يمكن الحديث عن المناطق المتاخمة لبلاد العرب والتي أثرت وتأثرت في عصر السيرة النبوية. وقد أوضح القرآن الكريم وبإيجاز الأوضاع العامة للعالم في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم].

وفي الناحية الدينية وهي الأساس المتحكم غالباً في تصرفات الناس، كانت الديانتان السماويتان اليهودية والنصرانية ذواتي علم وكتاب وتراث.[١]

---

(١) تمت الإشارة إلى الوثنية عند العرب، من خلال الحديث عن أحوال العرب قبل الإسلام في هذا الكتاب، وكذلك عند الحديث عن موطن الرسول ﷺ من هذا الكتاب.

اليهودية

ديانة حملها أتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذرية يعقوب ـ إسرائيل ـ حيث أنزلت عليه التوراة، وكانوا على التوحيد. وجد فيهم أنبياء في أوقات متفرقة، وقد حرفوا التوراة وقتلوا أنبياءهم بغير حق، اشتهر من ملوكهم داود وسليمان الصالحين الأنبياء.

تفرقوا في الأرض بعد سقوط دولهم، حيث أقام قسم منهم في يثرب وخيبر انتظاراً لمبعث النبي ﷺ، لكنهم جحدوا وعاندوا وتكبروا وكفروا وعادوا رسول الله المبعوث للعالمين، وخالفوا وصية أنبيائهم، سيئو الأدب مع الله، اشتهروا بأنهم أهل كتاب، حيث لديهم التوراة والأسفار المختلفة، أقرب إلى الحق من الوثنيين، ومع ذلك نالوا غضب الله بسوء أدبهم مع الله واتهامهم لله بالفقر والبخل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

كما أنهم قتلوا أنبياءهم وكفروا بآيات الله وحرفوها ﴿وَإِذْ

قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١)﴾ [البقرة].

كانوا يؤذون الناس بغير حق ويستبيحون دماءهم وأموالهم ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ [آل عمران].

كما أنهم قدسوا أحبارهم وقدموا أقوالهم على الله وأوامره ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة].

كما حرفوا التوراة عمدا ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾ [البقرة].

ومع ذلك فقد كانوا يزعمون انتظار نبي آخر الزمان ليتبعوه ويعرفوا الحق الذي بعث به محمد ﷺ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا

﴿ جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ ﴾ [البقرة].

النصرانية

ديانة من يزعم اتباع عيسى عليه السلام، من أكثر الديانات انتشاراً في العصر الحاضر، وهم فرق متعددة، كانت سائدة في الشام والعراق ومصر والحبشة وأوربا الجنوبية والشرقية، ومدعومة بقوة الروم السياسية والعسكرية والمالية. (١)

وأدى دخول الروم فيها إلى توثينها وإدخال الشرك فيها منذ القرن الرابع الميلادي على يد قسطنطين الأكبر، حيث خرجت عن التوحيد وبدأت بتأليه المسيح وأصبح من لا يعبد المسيح يعد خارجاً على العقيدة الرسمية للكنيسة، وقوتها السياسية دولة الروم وخدمها من غساسنة العرب أو ملوك الحبش. ودخل الصراع بين النصارى في تفصيلات مختلفة حول طبيعة المسيح، واخذ يكفر بعضهم بعضاً ويحارب بعضهم بعضاً، فوقع الصدام بين نصارى الروم ونصارى مصر وقام العداء بينهم. (٢)

وكان نصارى العرب في الجاهلية غالباً من اليعاقبة(٣) الذين

---

(١) انظر: فاروق الدملوجي، تاريخ الأديان، ص ٥٨٣.

(٢) لمزيد من المعلومات انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٦.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ص ٥٠٣.

يرون ـ والعياذ بالله ـ أن الله هو المسيح وليس ابناً، وهم الذين رد عليهم القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

كما كان جزء من نصارى فارس والعرب وخصوصاً في العراق نساطرة،[1] ويختلفون عن نصارى الروم وهم جميعاً كما قال الله تعالى ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة].

وجملة القول في كل أتباع النصرانية في العصر الجاهلي أنهم دخلوا الوثنية من أوسع أبوابها قبل بعثة النبي ﷺ كحالهم اليوم في عبادة المسيح وتأليهه.

المجوسية

تقوم ديانتها على عبادة النار بالدرجة الأولى، إضافة إلى بعض مظاهر الطبيعة كالكواكب والشمس وغيرها،[2] كانت لهم معابدهم الخاصة المنتشرة في إيران وسائر بلاد فارس، حيث

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص٥٠٢.
(٢) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص٢٦.

تقف معها دولة الفرس وتحميها وتنشرها في كل أنحاء الإمبراطورية الفارسية وما يخضع لها، وقد دخلت بلاد العرب وانتشرت بالدرجة الأولى في منطقة البحرين شرقي الجزيرة العربية، حيث وجد جماعة من الفرس أثرت على السكان المحليين، وانتشرت معابدها وما يتبعها من أساطير وكهان.

وكانت الزرادشتية ديانة سابقة للمجوسية قيل إن المجوسية تطورت عنها.[(١)]

البوذية

ديانة وثنية تعتمد على عبادة الأصنام وتقيم لذلك الهياكل والمعابد ويخدمها الكهنة والسحرة والمشعوذون،[(٢)] وكانت تنتشر في الهند وما وراءها من جنوب وشرق آسيا إلى الصين.

وتقوم هذه الديانة في زعمهم على تعدد الآلهة والصراع: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء]. وقد صاحبها في موطنها الديانة الهندوسية، التي أغرقت في زعم تعدد الآلهة وكثرتها حتى وصلت إلى الملايين عندهم.[(٣)]

وتعد الوثنية العربية وعبادة الأصنام عند العرب سائدة في

---

(١) مهدي رزق الله. صفوة السيرة النبوية، ص ٥١.

(٢) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٧.

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٨.

شتى أصقاع بلاد العرب، وخصوصاً في مكة المكرمة، إلا أن البعد الفلسفي لم يكن بعمق الوثنيات الأخرى، فلم تكن لدى العرب ثقافة مكتوبة حول آلهتهم المزعومة وإنما كان في غالبه تقليداً أعمى وزعم بأنها تقرب إلى الله.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر]، وأصروا على التمسك بأصنامهم ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح] واغرقوا في التقرب لأصنامهم والإشراك به ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام].

وكانوا ينكرون البعث ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية].

الحال السياسية في العصر الجاهلي

من المعلوم لكل ذي عقل أن الرسول ﷺ جاء بدين التوحيد وإخلاص العبادة لله، وأنه أقام دولة، أسس لها نظاماً ساسها بالشرع والدين، وأقامها بالعدل حتى صارت في آخر حياته ذات كيان قوي، تمكنت بعد وفاته ﷺ أن تسقط الدول المجاورة لها وتضعف بعضها، وتسيطر على مناطق شاسعة منها، لتنشر التوحيد وتحيي الناس على عبادة خالقهم، بعد أن سرقهم الطغاة وأضلوهم، وبالتالي فلا بد من إلمامة سريعة بالوضع السياسي لبلاد العرب وما جاورها، قبيل مبعث رسول الله ﷺ.

أحوال العرب السياسية

قبل أن نبدأ الحديث عن الدعوة الإسلامية وما تبعها من قيام الدولة، لا بد لنا أن نلمَّ إلمامة سريعة بشيء عن الحكومات والنظم التي سبقت الإسلام، سواء في مهبط الإسلام الجزيرة العربية أم في البلاد التي استطاع المسلمون فتحها ونشر الإسلام

فيها وتنظيم أمورها الداخلية خلال عصر الخلفاء الراشدين في فارس والعراق، أو في الشام ومصر وغيرها، حتى نستطيع أن ندرك الفرق بين هذه النظم التي كانت قائمة قبل الإسلام، وبين التنظيم الجديد لهذه البلدان والأقاليم خلال عهد الرسول ﷺ وما تلاه.

لم يكن هناك نظام واضح محدد في الجزيرة العربية، وخصوصاً في وسطها، ولم تكن هناك دولة يشار لها بالبنان، حيث سادت الأنظمة والأعراف القبلية، ومع ذلك فقد عرف في وسطها وجود مملكة لبني حنيفة، وإن كانت إسمية لا يتضح لها نظام، وقد كتب رسول الله ﷺ لملكها هوذة بن علي الحنفي.[1]

كما عرفت مملكة في البحرين غير واضحة المعالم أيضاً وإن كان الأرجح أنها خاضعة للفرس ونفوذهم إلى حد كبير،[2] وقد كتب الرسول ﷺ لملكها المشهور المنذر بن ساوي العبدي،[3] الذي أسلم وأسلم معه جمعٌ من العرب والفرس من أهل البحرين.[4]

---

(١) انظر: كتب الرسول ﷺ لملوك العالم (كتابه لهوذه بن علي الحنفي) ضمن هذا الكتاب.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٩.

(٣) انظر كتب الرسول ﷺ لملوك العالم (كتابه للمنذر بن ساوي العبدي) ضمن هذا الكتاب.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٩ ـ ٩٠.

ولا يمكننا ـ في هذا النطاق ـ معالجة حال بلاد العرب السياسية أو نظمها الإدارية من دون أن نفرق بين ممالك كانت قائمة ـ كما في اليمن ـ وبين مدن ذات طابع سياسي أقل تنظيماً وإدارة كما في مكة والمدينة قبيل الإسلام. ولا بد لنا من معالجة وجيزة للحال السياسية والإدارية للقبائل البدوية المنتشرة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية.

الأعراب

توجد في بلاد العرب الكثير من القبائل المنتشرة، وكانت كل قبيلة تنقسم إلى أفخاذ وبطون عدة يجمعها رابط أساسي هو رابط الدم والقرابة بالدرجة الأولى، ويفرقها هذا الرابط أيضاً.

وكانت كل قبيلة تدير شئونها بنفسها، وتحل مشكلاتها عن طريق زعماء القبيلة وحكامها، وهذه القبائل في العادة ترفض الخضوع لتنظيم سياسي معين، إلا أنه يوجد في كل قبيلة زعيم معيَّن تهبّ إليه عند الحاجة، فيتشاورون في ما بينهم، ويتخذون قراراً جماعياً في مجلس ذلك الشيخ،[1] ومع ذلك فإنه لم تكن هناك جهات رسمية تنفيذية تقوم بأعباء الإدارة والتنظيم ومتابعة

---

(١) د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، الجزء الأول «الدولة العربية قبل الإسلام» ١٩٦٠م بدون مكان الطبع، ج١/١٥٨.
د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط٥، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٥٠.

الأوامر، إذ لم يكن هناك موظفون معينون أو دواوين أو ما إلى ذلك،[1] إلا أنه في حال تعرض القبيلة لهجوم معاد من إحدى القبائل الأخرى، كعادة العرب في العصر الجاهلي، فإن القبيلة بكاملها تهب للدفاع عن نفسها وتستعد استعداداً كاملاً لمثل هذه الأمور. وهكذا فإننا لا يمكن أن نلمس نظاماً سياسياً معيناً لدى هذه القبائل يمكن أن يوجه دفة الأمور بدقة في شؤون القبيلة.

وقد جرت في الجزيرة العربية محاولات عدة في بعض القبائل لإقامة مملكة أو نظام ملكي، عن طريق تتويج أحد أفراد القبيلة ملكاً، إلا أن معظم هذه المحاولات لم تنجح، كما حدث في بني حنيفة.[2]

مكة والمدينة

لا بد لنا من الإلمام بما كانت عليه الأحوال السياسية في مكة والمدينة قبيل الإسلام، فقد كان هناك تأثير لهذه الأحوال على بعض تطبيقات النظم الإسلامية فيما بعد، خصوصاً أن مكة والمدينة أرض الإسلام الأولى.

كانت تعيش في مكة وما حولها قبيل الإسلام بعض القبائل

---

(١) مولوي: س. ا. ق. حسيني، الإدارة العربية، ترجمة د. إبراهيم أحمد العدوي مراجعة عبدالعزيز عبد الخالق، مكتبة القاهرة بدون تاريخ ص ٢٣.

(٢) د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ج١/ ١٦٠.

أهمها قريش.[1] ومكة منذ القدم كانت مقدسة لدى العرب عموماً، يفد إليها الحجاج من مختلف بلاد العرب، وبذلك فهي ذات مكانة وحرمة خاصة، كما أن أهل مكة كانوا تجاراً حاذقين ينتقلون للتجارة بين اليمن والحجاز والشام والعراق وغيرها، فيما عرف برحلة الشتاء والصيف،[2] التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾ [قريش].

وهم بذلك يكتسبون خبرات سياسية واجتماعية تميزهم عن القبائل الأخرى، رغم أن الطابع العام في مكة كان يشبه النظام القبلي، حيث لا توجد حكومة مركزية معينة مسؤولة عن إدارة البلد وتنظيمها، وكان هناك ما يعرف بـ(دار الندوة) يجتمع فيها كبار القوم من قريش يتباحثون فيها حول أهم شؤونهم الحربية والاجتماعية والتجارية،[3] كما أن هناك اجتماعات أخرى جانبية

---

(١) المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ترتيب وضبط يوسف أسعد داغر، ط٢، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٣ ـ ١٣٩٣هـ، ج٢/ ٣٣.

(٢) انظر: الموسوي، محمد بن عبدالله المعروف بـ كبريت، رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط٢، بيروت ١٣٨٥هـ.

الحليسي: نواف بن صالح، رحلة الشتاء والصيف ـ قريش ومنهجها التجاري والاقتصادي ـ ط١، ١٤١٤هـ. د. م.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤/ ٤٤.

تناقش فيها هذه الأمور تعقد في الغالب في حلقات حول الكعبة،[1] إلا أنه لم تكن هناك إدارة تنفيذية تقوم بالمهام المتفق عليها إلا في الأحوال النادرة، فمثلاً في حال الحرب يعطون الراية إلى شخص أو أشخاص معينين، وفي حال التفاوض مع قبائل معينة لعقد حلف يختار أشخاص معينون يقومون بتنفيذ المهمة،[2] كما كان هناك قواد مختصون بقيادة القوافل التجارية، أما ما عدا ذلك فلا نكاد نلمس نظاماً سياسياً معيناً يدير شؤون البلد إدارة كاملة، كما في بعض الممالك المجاورة لبلاد العرب، بل على العكس نرى أهل مكة يرفضون أن يملِّكوا عليهم رجلاً منهم أرسله (قيصر الروم) ويتهكمون به.[3]

ولعل ذلك مما ساعد على وجود الظلم والفساد في المجتمع المكي.[4]

أما في المدينة المنورة، فكان الوضع مختلفاً عن مكة إلى حد ما، حيث كان يسكن المدينة خليط من العرب من الأوس

---

(١) مولوي. س. أ. حسيني: الإدارة العربية، ص ٢٨.
(٢) صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٤٦؛
د. جواد علي: المفصل، ج٤/ ٦٩.
مولوي. س. أ. حسيني: الإدارة العربية، ص ٢٧.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٤٤، حاشية (٢)؛ وابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص ١٥٤؛ والزبيري، نسب قريش، ص ٢١٠.
شلبي: روؤف، المجتمع العربي قبل الإسلام، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص١٣٧ ـ ١٩.
(٤) محمود شاكر، السيرة النبوية، ص٣٣.

والخزرج وجماعات مختلفة من اليهود[1] على رأسهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وقد كان لهذا التنوع في السكان دور كبير في اضطراب الأمور فيها، وعدم وجود نظام سياسي يحكم المدينة قبيل الإسلام، فهناك اضطرابات متكررة نظراً للحروب التي كانت تقوم بين الأوس والخزرج بين الحين والآخر[2] بتزكية من يهود المدينة.

أما يهود المدينة أنفسهم فكان لديهم شيء من التنظيم الداخلي في ما بينهم، يدل على ذلك انتشار حصونهم وتنظيمها، ووجود زعماء محددين يتحدثون باسمهم.

وبالنسبة للعرب في المدينة من الأوس والخزرج، فقد كانوا في الغالب يعتمدون على التنظيم القبلي السائد عند الأعراب في البوادي، رغم أنهم سكان مدن وقرى إلا أنهم تنظيمياً يصطبغون بالصبغة القبلية، وبذلك سهل على اليهود السيطرة عليهم،[3] وإيقاع المشاكل بينهم، واستمر الوضع في المدينة دونما إدارة أو تنظيم مسؤول عن شؤون البلد ومصالحها المختلفة حتى ظهور الإسلام.

---

(١) جواد علي، المفصل، ج٤/١٣١؛ محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، ص٥٥، ٦٨.

(٢) جواد علي، المفصل، ج٤/١٣٨؛ صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٤٨؛ محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، ص ١٤٦.

(٣) د. محمد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩م، ص ٥٠.

ممالك العرب قبل الإسلام

مملكة الحيرة

كانت قائمة قبيل الإسلام في مدينة الحيرة في العراق في المناطق المجاورة للفرات، يسكنها العرب إضافة إلى بعض الفرس والأنباط،[١] إلا أن السيطرة فيها كانت للمناذرة وملوكهم، وكانوا يخضعون لكسرى فارس خضوعاً تاماً، حتى أنه يمكننا أن نطلق عليهم تسمية (عرب الفرس). إلا أن سكان الحيرة في الغالب من النصارى،[٢] وبهذا يخالفون الفرس في الديانة. ولم يمنع هذا من تبعيتهم للفرس، ومن أشهر ملوكهم

---

(١) جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس، دار الهلال القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٢٤.
د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج١/ ٧٤.

(٢) د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٤.
جورجي زيدان، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(النعمان بن المنذر) الذي قام كسرى فارس بإعدامه تحت أقدام الفيلة حينما تجرأ على مخالفته،[1] وهذا يعطينا دلالة قوية على تحكم الفرس بهؤلاء الملوك. ويعتقد كثير من المؤرخين أن مملكة الحيرة قامت بغرض حماية الحدود الغربية للإمبراطورية الفارسية من هجمات الأعراب، بل إن أكثر المصادر العربية تسمي ملك الحيرة أحياناً عامل كسرى على الحيرة،[2] وتعده والياً من قبل كسرى على هذه البلاد.

وقد اشتبك المسلمون مع مملكة الحيرة أثناء الفتح الإسلامي للعراق، واستطاع خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يدخل الحيرة بعد أن صالح واليها من قبل كسرى (إياس بن قبيصة الطائي)،[3] وقد كانت هذه المملكة مسرحاً للعديد من العمليات الحربية التي وقعت في بداية البعثة النبوية بين الفرس والروم،[4] نظراً لقربها من الحدود وبين الدولتين.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٢/ ٧٨.
السيد عبدالعزيز السالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص٢٤٣؛ جواد علي، المفصل، ج٣/ ١٥٥.

(٢) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، نشره قصي محب الدين الخطيب ط٥، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٩٦هـ، ص١٥٤. والبلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ، ص ٢٤٤.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٤، أبو يوسف، الخراج، ص ١٥٤.

(٤) جورجي زيدان، المصدر السابق، ٢٤٠.
وانظر: ولداده محمد، جزيرة العرب مصير أرض وأمة (قبل الإسلام)، ط١، مطابع الفرزدق الرياض، ١٤٠٧هـ، ص١٦٩.

أما التنظيم الإداري في هذه المملكة فلا شك أنه كان قائماً، إلا أنه لا يمكننا تحديد هذا النظام بدقة، على الرغم من معرفتنا بأن هناك ملكاً معيناً يدير شؤون هذه البلاد، يعاونه بعض القواد ومجموعات كبيرة من الجنود،[1] يستعين بهم ملك الحيرة في حروبه التي كانت في الغالب موجهة لصالح مملكة الفرس.[2]

مملكة غسان

وجدت مملكة الغساسنة في الشام قبل الإسلام بفترة طويلة،[3] وقد تردد اسم هذه المملكة العربية كثيراً في المصادر الإسلامية؛ نظراً لارتباطها الشديد بالأحداث العظيمة التي صاحبت الفتح الإسلامي في بلاد الشام، حيث إن ارتباط هذه المملكة بالروم جعل الروم يدفعون بهم مرات عدة لمواجهة الجيش الإسلامي الفاتح في معارك عديدة، منفردين أو مشاركين للروم بحكم ديانتهم في تلك المعارك، كاليرموك وغيرها.

وقد كان الغساسنة حكاماً على مناطق محددة في الشام شبه مستقلة مركزها دمشق، إلا أنهم كانوا يخضعون لملوك الروم

---

(١) د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج١/ ٧٦.

(٢) نينا فكتور بيغولفيسكيا، العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للفنون والآداب الكويت ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص٩٧.

(٣) محمد أحمد باشميل، العرب في الشام قبل الإسلام، الطبعة الأولى، دار الفكر بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ص ١٨٦.

خضوعاً كاملاً، ويعدون جزءاً من مملكة الروم، ويعيَّن ملوكهم من قبل ملك الروم نفسه،[1] ويستفيد منهم الروم عسكرياً، حيث يستخدمونهم بالدرجة الأولى في مواجهة المناذرة في الحيرة الذين كانوا كثيراً ما يعتدون على الحدود الشرقية للروم.[2]

وقد دانت مملكة الغساسنة بالنصرانية، وهي الدين الرسمي للدولة البيزنطية، إلا أنه كان هناك خلاف مذهبي بينهما[3] ومع ذلك فقد استفاد منهم الروم في ضبط الحدود الشرقية والجنوبية لإمبراطوريتهم مما يلي بلاد العرب والساسانيين،[4] كما اشتركوا مع الروم في صد هجمات المسلمين على الشام أثناء الفتوحات الإسلامية لتلك البلاد.

وقد تردد الكثير من الشعراء العرب على ملوك الغساسنة في

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٢/ ٨٣. محمد أحمد باشميل، المرجع السابق، ص١٩٣.

(٢) ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المغربي، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الأعلمي بيروت، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م، ج٢/ ٢٧٩. السيد عبدالعزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص١٩٩، محمد أحمد باشميل، المرجع السابق، ص٢٠٢؛ جواد علي، المفصل، ج٣/ ٣٨٧.

(٣) د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٤٢ ومحمد أحمد باشميل، المرجع السابق، ص٢١٦.

(٤) نينا فكتور بيغوليفسيكيا، المرجع السابق، ص٢١٧.
د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج١/ ٥٦.

الشام، مادحين، وحفظت بعض قصائدهم شيئاً من تاريخ هؤلاء الملوك،[1] وإذا كان يصعب علينا معرفة الحال الإدارية لهذه الدولة، إلا أنه يمكننا أن نعدها جزءاً من إمبراطورية الروم، وتنظيمها العام، ونطلق عليهم تسمية (عرب الروم). ويبدو أن المراكز الرئيسة المحصنة في بلاد الشام التي تقع في نطاق مملكة الغساسنة كانت تدار بصفة مباشرة من قبل موظفين تابعين للقسطنطينية.[2]

وقد كان آخر ملوك الغساسنة في الشام هو (جَبَلَة بن الأيهم الغساني)[3] الذي قاوم المسلمين واشترك إلى جانب الروم في معركة اليرموك وغيرها، ثم أعلن إسلامه فيما بعد، إلا أنه ارتد حين أراد عمر أن يقتص منه لأعرابي بـلطمه، فهرب إلى القسطنطينية وعاد إلى النصرانية وبقي عليها حتى مات، سنة ثلاث وخمسين للهجرة[4] وكانت نهاية مملكة الغساسنة في الوقت الذي انتهت فيه سيطرة الروم على الشام بعد الفتح الإسلامي العظيم أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

---

(١) د. السيد عبدالعزيز السالم، المصدر السابق، ص٢١٢.

(٢) د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج١/ ٥٦. د. جواد علي، المفصل، ج٣/ ٤١٩.

(٣) انظر تفاصيل قصته عند ذكر كتاب الرسول إليه ﷺ في موضوع كتب الرسول ﷺ لملوك العالم من هذا الكتاب.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨/ ٦٣ السيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص ٢٢٦.

اليمن

قامت في اليمن في الجاهلية ممالك عربية اشتهرت بقوتها وتعددت ملوكها، إلا أن الأحوال في اليمن قبيل الإسلام قد تغيرت، إذ استولى عليها الأحباش بتحريك من الروم، ونازعوا أهل البلاد من العرب، إضافة إلى الفرس ومن ينوب عنهم، وكان لهذا التنازع دور كبير في اضطراب الأحوال في هذه المنطقة بعد سقوط حكم الحميريين على يد الأحباش،[1] ومن ثم تولى الأحباش حكم اليمن لمدَّة من الزمن، استطاعوا خلالها أن يمدوا سلطانهم إلى مناطق تهامة المجاورة لليمن، وحاولوا الوصول إلى مكة لولا حادثة الفيل[2] التي وردت في القرآن الكريم.

كانت معاملة الأحباش التعسفية لأهل اليمن دافعاً لهم لطلب النجدة من فارس للمساعدة على طرد الأحباش من اليمن.[3] وقد قام كسرى بإرسال مجموعة كبيرة من المساجين الفرس إلى بلاد اليمن استطاعوا بمساعدة السكان المحليين طرد الأحباش من اليمن وإقامة حكومة مشتركة بين العرب من أهل

---

(١) د. السيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص ١٣٢. د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص٢٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٥٢.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٤٦. د. جواد علي، المفصل، ج٣/ ٥٢٦. د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ٣٠.

اليمن والفرس الذين أرسلهم كسرى، جعلوا رئاستها إلى سيف ابن ذي يزن الحميري الذي لم يلبث إلا قليلاً حتى استطاع بعض الأحباش قتله غيلة،[1] وانقضى بذلك ملك حمير، وصارت اليمن بأيدي عمال من الفرس[2] استمروا عليها حتى هاجر الرسول ﷺ، فأرسل إلى حاكم اليمن (باذان) فأسلم، وأسلم من كان معه من الأبناء[3] ودخلت اليمن في الإسلام، وأصبح لها دورها الرئيس، ثم حدثت نكسة أثناء الردة حين خرج الأسود العنسي الكذاب متنبئاً، إلا أن المسلمين من الفرس وبعض القبائل الأخرى من بقي منهم على إسلامه استطاعوا القضاء على الأسود العنسي الكذاب،[4] وإعادة اليمن إلى الإسلام.

فارس

قامت فيها دولة قوية منذ القدم مرت بمراحل حضارية متطورة في تلك الأيام، إلا أن ما يهمنا معرفته عن مملكة فارس هو السنوات الأخيرة التي سبقت احتكاك هذه الدولة بالإسلام

---

(١) جواد علي، المفصل، ص٥٢٧. د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص٣١. د. السيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص١٥٠.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٢/ ٨٥؛ د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص٣١؛ جواد علي، المفصل، ص ٥٢٤.
(٣) ابن هشام، المصدر السابق، ج١/ ٦٩.
(٤) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج١، المطبعة الحسينية بالقاهرة، بدون تاريخ، ج٣/ ٢٦٤.

عن طريق الفتوح، ومحاولة معرفة طبيعة هذه الدولة والنظم السائدة فيها باختصار شديد.

قام نظام الحكم في فارس على تنظيم ملكي استبدادي طبقي يميز بين الناس، فالملك الساساني في نظرهم صاحب حق إلهي يستطيع أن يفرض ما يريد من نظام وأن يوقع ما يشاء من عقوبات في حق مخالفيه،[١] كما أن الملك الفارسي يشرف بنفسه على بقاء التفرقة بين الناس والأسر حسب النظام الطبقي الموضوع، وكل من يحاول مخالفة ذلك يتعرض لعقوبات خطيرة قد تصل إلى القتل، ومن ينتمي إلى الأسرة الملكية لا يمكنه أن يتزوج من العامة وإلا تعرض لتلك العقوبات الصارمة.[٢] وبناء على هذه التفرقة الطبقية، كان الكثير من الظلم يقع على رعايا الدولة الفارسية، وعلى وجه الخصوص عامة الشعب.

وقد كانت الدولة تعتمد على جيش قوي منظم يتميز أفراده عن بقية الناس في اللباس، وأُلزم العامة أن يؤدوا التحية لرجال الجيش بالسجود لهم،[٣] كما أن الجنود ملزمون باحترام قوادهم

---

(١) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٣٠؛ محمد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم، ص٥١؛ ول ديورانت قصة الحضارة. ج٢ م ١، الشرق الأدنى، ترجمة محمد بدران، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦١، ص٤١.

(٢) د. يحيى الخشاب، تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام، القاهرة، بدون تاريخ، ص٤٠؛ صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٣٠.

(٣) د. يحيى الخشاب، المصدر السابق، ص ٤٨؛ ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٤١٧.

واحترام الأشراف الأعلى منهم درجة. كان الملك يدير دفة المملكة بنفسه، يساعده حكام الولايات وهم المسمون بالمرازبة،[١] إضافة إلى بعض الأمراء في الأقاليم وهم من ملاك الأراضي الواسعة، ويسمون الدهاقين، والذين يتردد ذكرهم كثيراً في المصادر الإسلامية أثناء الحديث عن الفتوح في فارس، ولا شك أن هؤلاء الدهاقين كانوا يؤدون أموراً إدارية تخدم مصلحة الدولة، ويقومون بجباية الضرائب من الفلاحين والعمال وإرسالها إلى خزينة الدولة في العاصمة.[٢]

وذلك كي يخدموا الملك وحاشيته في ترفهم العظيم الذي لم يكن له نظير، حيث اشتهر عن ملوك الفرس جمعهم للكنوز والذخائر وإسرافهم الشديد في الملابس والأطعمة حتى كان يضرب بهم المثل،[٣] بل إن الدهاقين أنفسهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة على لذاتهم وشهواتهم.

وكان هذا الترف الشديد لدى الملك نفسه وأمراء الأقاليم يدفعهم إلى فرض الضرائب الباهظة على المزارعين والعامة، وبالتالي كان الشعور بالظلم لدى الرعايا شديداً نتيجة ما يدفعونه

---

(١) آرثر كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة د. يحيى الخشاب، مراجعة عبدالوهاب عزام، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٨٨.

(٢) د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ٣٥؛ ول ديورانت، المرجع السابق، ج١ م١، ص٤٢١؛ آرثر كريستنسن، المرجع السابق، ص١١٢.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج١/ ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ ٣٠٣.

من ضرائب عن مختلف المحاصيل الزراعية، إضافة إلى ما يدفع من ضرائب عن النشاط التجاري، وما يشبه الجزية على الرؤوس يدفعها عامة الشعب عدا رجال الدين والأشراف والجنود فهم معفون من الجزية.[1] ولا شك أن إدارة هذه الضرائب وضبطها كانت تحتاج إلى مجموعة من الموظفين، وإلى عدد من الدواوين لضبط هذه الأمور وحسن تصريفها، كما أن هناك بعض المفتشين الذين ترسلهم العاصمة إلى الأقاليم ليفحصوا سجلاتها وشؤونها الإدارية والمالية،[2] ويضبطوا ما يدفعه الناس من ضرائب.

وقد عانت الدولة الفارسية في أواخر أيامها وقبيل الفتح الإسلامي من حروب شديدة وقاسية مع الروم أثرت عليها، ما دفعها لفرض المزيد من الضرائب على رعاياها،[3] وبالتالي زاد السخط من الرعية على النظام الفارسي، ومهد لدخول الإسلام في بلاد فارس.

الـــروم[4]

من المعروف أن مصر والشام وشمال أفريقيا كانت ولايات

---

(١) د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٣٦.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج٢ م١ ص ٤٢.

(٣) آرثر كريستنسن، المرجع السابق، ص١١٢.

(٤) سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم الروم، وأشارت إلى الحروب الدائرة بينهم وبين أعدائهم من الفرس.

تابعة لإمبراطورية الروم، ومركزها القسطنطينية وتمتد شرق ووسط أوروبا، وقد كان المسيطر الفعلي على الحكم في هذه المملكة هو الإمبراطور نفسه الذي كان له الحق في اتخاذ القرارات، يساعده في عمله لجنة فرعية تعمل معه،[١] وأما حكم المقاطعات فكان عسكرياً في الغالب، حيث تتوزع معسكرات الجنود على الولايات، ولهم معسكراتهم وقواعدهم العسكرية الخاصة، ولم يمنع هذا من وجود موظفين يقومون بالكثير من الأعمال.[٢] وقد حدثت حروب كثيرة بين الفرس والروم قبيل الإسلام قوَّت النظام العسكري وزادت من الحاجة إليه،[٣] وبالتالي اضطربت الأمور في كثير من الولايات في الشام ومصر والجزيرة وغيرها، تبعاً للمد والجزر في هذه الحروب الفارسية الرومية التي استمرت مدَّة طويلة من الزمن قبيل الإسلام، وهي التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الروم]، كما أن نظام الضرائب المفروض في

(١) ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦١م، ص ٨.

(٢) المرجع السابق.

نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة ١٩٥٠م، ص ١٧.

(٣) رنسيمان، المرجع السابق، ص٩٧.

أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، الطبعة الأولى، دار المكشوف، بيروت، ج١/ ٢٢٣.

الولايات الرومية كان يشعر الناس بالإرهاق، فهناك ضرائب على الأراضي، وضرائب على الحيوانات، وضرائب على مختلف الممتلكات، إضافة إلى الضرائب الموضوعة على الرؤوس، [(١)] وقد تسببت الحروب المذكورة مع الفرس في إفلاس الدولة، ما دفعها في عهد هرقل إلى الاستدانة من أصحاب الثروات، وبالدرجة الأولى من الكنائس التي تمتلك الأموال الطائلة. إضافة إلى ذلك فإن هذه الظروف الحربية دفعت الدولة إلى فرض المزيد من الضرائب على الناس. [(٢)]

وتقتضي هذه الضرائب بطبيعة الحال وجود العديد من الموظفين والكتبة، إضافة إلى الدواوين التي تحفظ فيها سجلات الضرائب وغيرها وتضبطها، كما وُجد لدى الروم ملتزمون يقومون بجباية الضرائب والخراج لأنفسهم، مقابل التزام بمبالغ معينة يدفعونها إلى خزينة الدولة، وهم بهذا يوقِعون الظلم على الناس، حتى يستطيعوا الالتزام بهذه المبالغ التي ضمنوها للدولة. [(٣)]

وبما أن الديانة العامة للدولة هي (النصرانية) فقد كان لرجال الدين مكانة خاصة في الدولة، كما أن الكثير من

---

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ص١١٢؛ د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٢٤، ٢٦.

(٢) نورمان بيتز، المرجع السابق، ص١٣٠. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٢٤.

(٣) نورمان بيتز، المرجع السابق، ص١٣٥؛ مراد محمد علي، الأساليب الإدارية في الإسلام، ص٤٧؛ د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية ص٤٣.

الضرائب كانت تفرض على الناس لصالح الكنيسة، إضافة إلى أن الكنيسة ورجالها يقومون بمعاقبة كل من تسول له نفسه مخالفة أوامرهم،[1] وتكثر الخلافات القائمة بين الكنائس بعضها مع بعض، وتؤدي إلى المنازعات والخلافات العقائدية التي تصل إلى مراحل قوية من العداء بين بعض الولايات والبعض الآخر، نتيجة اتباع مذاهب مختلفة، وقد حاولت الدولة فرض المذهب اللاهوتي السائد في القسطنطينية[2] على باقي الولايات[3] وخصوصاً في مصر، مما أوجد عداءً شديداً بين الأقباط والروم.

وهكذا نرى أن معظم الولايات في الدولة البيزنطية قبيل الفتح الإسلامي كانت تعيش تنظيماً عسكرياً خاصاً وصارماً، ولا سيما مع بدأ الفتوحات الإسلامية.

هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من الناس في الدولة البيزنظية كانوا يحسون بالاضطهاد والظلم، نتيجة لنظام الضرائب وتدخل

---

(١) د. أسد رستم، المرجع السابق، ج١/ ١٣٨.

(٢) كان المذهب السائد في القسطنطينية هو المذهب (المنوفستي ـ المونوفيزي ـ والذي يختلف مع الأرثوذكس في تفسير طبيعة المسيح. وقد لاقى هذا المذهب دعماً من هرقل في مواجهة المذاهب الأخرى خصوصاً في مصر والشام ضد اليعقوبية والقبطية والأرمنية (د. عبد القادر أحمد اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٦٦، ص ٩٨).

(٣) نورمان بتز، المرجع السابق، ص١٠٢؛ رنسيمان، المرجع السابق، ص١٢٨.

الدولة في الشؤون الدينية وتأييدها لبعض المذاهب الدينية على حساب بعض المذاهب الأخرى، كل هذا أوجد مناخاً خاصاً سبق الفتوح الإسلامية لهذه البلاد ومهد لها.

العالم وانتظار الرسول

كان إبراهيم عليه السلام وأبناؤه من بعده موحِّدين، ودعا الله سبحانه وتعالى أن يجدد التوحيد في بنيه، وفي ساكني البيت الحرام، فكانت دعوته في القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة]. ولذلك كان الأحناف ينتظرون استجابة دعوته.

اليهود

أقام يهود في المدينة وخيبر انتظاراً لمبعث الرسول ﷺ[١] فلما ظهر من غيرهم كفروا به. وقد أشارت الآيات إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/١٤٣. وانظر: الطبري، تفسيره للآية.

مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة].

وجاءت أخبار كثيرة عن يهود وعلمائهم زمن النبي ﷺ تبين معرفتهم التامة بصفاته ﷺ.(١) وقد أدت هذه المعرفة السابقة إلى إسلام عدد منهم، على رأسهم عبدالله بن سلام رضي الله عنه(٢) وثعلبة بن سعينة القرظي في نفر من يهود المدينة.(٣) والله سبحانه وقوله الحق يؤكد وجوده مكتوباً عندهم مع الإشارة لوجوب اتباعه ﷺ مع معرفة صفته وما يأمر به.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف].

كما أكد سبحانه وتعالى معرفتهم للنبي ﷺ بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة].

---

(١) انظر: السقا، أحمد حجازي، نبوة محمد في الكتاب المقدس، ط١، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ٣٢٠.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٤٤.
ابن حجر، الإصابة، ج١/ ٣٣ وابن الأثير، أسد الغابة، ج١/ ٢٤٠.

وقد كان كفار يهود المعاندون له يعرفون حقاً انه نبي، وعلى رأسهم حيي بن أخطب وغيره من زعماء يهود المدينة الذين عرفوا أنه صادق وأنه نبي هذا الزمان واتخذوا العداء موقفاً.(١)

والاستشهاد بنصوص التوراة والإنجيل في هذا الموضوع محل نظر عند البعض، إلا أنني أرى أن الاستشهاد ببعض ما بقي منها من الحق عندهم يخدم سيرة الرسول ﷺ مع استشعار الدقة والمنهج العلمي والحدود الشرعية.

وعندهم ما يوافق ما جاء في القرآن الكريم من ذكر مكة بمسمى بكة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران].

وقد بقيت حتى الآن إشارات في التوراة إلى بيت الله وبعث محمد واتباعه فيه في المزامير (٨٤: ٥ ـ ٧٦).

(«طوبى لأناس عزهم بكه، طِفْ بيتك في قلوبه عابرين في وادي البكيين يعبرونه ينبوعاً»).

والنص كما يظهر يشير إلى مكة والبيت الحرام والطواف به.

"Blessed is the man whose strength is in thee in

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٢٠.

whose Heart are: the ways of them passing through the valley of (Baca) make it well" (١)

(Psalms 89 - 5 - 76)

وقد دلت نصوص في التوراة العربية مما بقى فيها من الحق على وجود نبي من بني إسماعيل، ففي سفر التكوين (١٧ــ٢٠) ما نصه:

(وأما إسماعيل فسمعت وها أنا أباركه وأنميه وأكثره جداً ويلد اثني عشر رئيساً وأجعل نسله أمة عظيمة). (٢)

وفي سفر التثنية ١٨ــ ١٥ (يقيم لكم الرب إلهكم نبياً من بينكم من إخوتكم بني قومكم فاسمعوا له» .....سأقيم لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك، وألقي كلامي في فمه فينقل لكم إليهم جميع ما أكلمه به. وكل من لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أحاسبه عليه)، (٣) والمقصود من ذرية إسماعيل، فهم أخو إسحاق، واليهود يعترفون إنهم يحملون كتاباً محرَّفاً وإنهم يقومون بتعديله كما يزعمون بحكمتهم ولباقتهم. (٤)

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٥٣ نقلاً عن Jewish Encyclopedia. Y. 11 P. 415.

(٢) انظر: ص ١٩، الكتاب المقدس، العهد القديم.

(٣) انظر: ص ٢٣٧، الكتاب المقدس؛ وانظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٥٤؛ وقد قارنت ما نقله الندوي بنصوص العهد القديم فوجدت تفاوتاً في بعض الألفاظ مما يوحي باختلاف كل طبعة عن الأخرى، حسب الترجمة أو الهوى وتعمد التحريف.

(٤) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٥٥ نقلاً عن Jewish Encyclopedia. Vol. 9P. 589.

كما ورد في أسفار اليهود: «وسوف أزلزل كل الأمم وسوف يأتي (حمده) لكل الأمم وسوف أملأ هذا البيت بالمجد كذلك قال رب الجموع» ـ (سفر حجي ٩/ ـ ٧ ـ ٩).[(١)]

وقد قال الله عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].

وفيهم ورد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران].

النصارى

كانت لهم السيطرة في مصر والشام وعامة بلاد الروم، وانتشرت النصرانية بين العرب خصوصاً في شمال الجزيرة العربية؛ تميم وقضاعة وغيرها،[(٢)] وفي نجران مركز النصرانية جنوب الجزيرة العربية، وقد دل القرآن الكريم على أن عيسى عليه السلام حدث أتباعه عن محمد ﷺ فطلب منهم اتّباعه كما جاء في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم

---

(١) انظر النصوص كاملة عند عبد الأحد داود في: محمد ﷺ كما ورد في كتابات اليهود، وقد أشار إلى وجود الاسم حمده ويعني محمد في النسخ وإلى تحريفها إلى (الأمُنية) في بعض النسخ الجديدة، ص ٣٧.

(٢) انظر: موضوع الحالة الدينية قبل مبعث الرسول ﷺ من هذا الكتاب.

مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ [الصف]. (١)

ومن المعروف في قصة إسلام سلمان الفارسي التي رواها البخاري في صحيحه أن سلمان ﷺ قد أخبره أحد علماء النصارى في الشام بقرب مبعث نبي آخر الزمان، وأوصاه باتباعه، وأنه ﷺ استُرِقَّ حتى صار في مُلْكِ يهوديٍ في المدينة، ولما سمع كلام النبي ﷺ ورأى علامة النبوة التي أخبره بها علماء النصارى آمن بالرسول ﷺ واتبعه. (٢)

وقد عمل عدد ممن اهتدى من النصارى في العصر الحديث على البحث عن ما ذكر عن محمد ﷺ، من كتب النصارى، وكان معهم القس المصري سابقاً (إبراهيم خليل أحمد) الذي نشر كتاباً بعنوان «محمد في التوراة والإنجيل»، واعتمد فيه على الكتاب المقدس بجزأيه العهد القديم والعهد الجديد، ومما قال: «يحتوي الكتاب المقدس على نصوص شديدة الوضوح حول رسالة وشخصية الرسول الأمي ﷺ وضوحاً بيِّناً لا لَبْس فيه». (٣)

---

(١) انظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ج١/ ١٣٢.

(٢) انظر قصة إسلام سلمان الفارسي، في موضوع المعايشون للرسول ﷺ من هذا الكتاب.

(٣) إبراهيم خليل أحمد، محمد في التوراة والإنجيل، دار المنار، ١٤٠٩هـ، ص٣٠.

ويمكن الاستدلال بالآيات الواردة عن أهل الكتاب في اليهود كما في النصارى كما في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

وقد كتب عبد الأحد داود المسمى «ديفيد بنجامين كلداني»، وكان قسيساً نصرانياً فأسلم، كتاباً حول الموضوع بعنوان: «محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى».[١]

وقد كتب عدد من المسلمين عن الموضوع منهم المرحوم الشيخ أحمد ديدات في كتابه «**ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد** ﷺ»، وقد نشرت منه ملايين النسخ باللغتين الانجليزية والعربية،[٢] ومن النصوص الباقية إلى الآن ما ورد في إنجيل يوحنا ١٦ : ٥: «فأنا ذاهب إلى الذي أرسلني، ولا أحد منكم يسألني: إلى أين أنت ذاهب؟ والآن قلت لكم، فملأ الحزن قلوبكم صدقوني، من الخير لكم أن أذهب، فإن كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزي».

(١) البروفسور عبدالأحد داود، محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ترجمة حمد فاروق الزين، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ.

(٢) ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد، كتيب نشر باللغة الإنجليزية عشرات المرات وترجمه إبراهيم خليل أحمد إلى اللغة العربية، ويمكن لأي شخص أن يجد نص الكتاب ويحمله من مواقع الإنترنت حيث يوجد في الكثير من المواقع العربية والإنجليزية (www.4shared.com).

وكذلك ما ورد في إنجيل متى ٢١: ٤٢ و٤٣، ٤٤: «أما قرأتم في الكتب المقدسة: الحجر الذي رفضه البناءون صار رأس الزاوية؟ هذا ما صنعه الرب، فيا للعجب!.

لذلك أقول لكم: سيأخذ الله ملكوته منكم ويسلمه إلى شعب يجعله يثمر، من وقع على هذا الحجر تهشم. ومن وقع هذا الحجر عليه سحقه».

وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذا اللبنة فقال أنا اللبنة وأنا خاتم النبيين).[1]

ورد في إنجيل يوحنا (١٦: ٧ و ٨) (صدقوني، من الخير لكم أن أذهب، فإن كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزي. أمَّا إذا ذهبت فأرسله إليكم. ومتى جاء وبخَ العالم على الخطيئة والبر والدينونة)، وقد ورد في نسخة أخرى من إنجيل متى: «قلت لكم حتى متى جاء وقت حدوثه تذكرت أنه سبق أن أخبرتكم به. ولم أقل لكم هذا منذ البداية لأني كنت معكم أما الآن عائد إلى الذي أرسلني ولا أحد منكم يسألني أين تذهب؟ عندما أخبرتكم بهذا ملأ الحزن قلوبكم، ولكني أقول لكم الحق، من الأفضل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب: ١٨.

أن أذهب لأني إن كنت لا أذهب لا يأتيكم المعين». [1]

ومن الغريب أن الكتاب الذي راجعته كتاب تفسير للأناجيل وللعهد القديم لما جاء عند النص المذكور تجاوزه ولم يفسر المُعين المذكور في النص وتجاهله وتحدث عن موضوع آخر وهو موت المسيح للتكفير وليمحو خطايا الناس. [2]

وتؤكد الأبحاث أن اللفظة الأصلية في إنجيل يوحنا كانت (*Periglytos*) أي أحمد أو محمد وأنها حرفت عمداً في اللاتينية إلى (*Paracletc*) المعزي لإبعاد الناس عمداً عن أحمد الأصلية في الإنجيل وصرفهم عن الحقيقة، [3] كما ورد في النص:

---

(١) النص في «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس»، شرح إنجيل يوحنا ١٦ : ٦ . ٧، ص٢٢٩٦، ٢٢٩٧ .

(٢) انظر: ص ٢٢٩٦، من التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، وللمزيد من التوضيح حول هذا النص وغيره راجع عبدالأحد داود، الذي كان قسيساً فأسلم في كتابه محمد ﷺ كما وراد في كتب اليهود والنصارى، ص ٢٣ .

(٣) عبدالأحد داود، ص ١٤٢ .

وقد أورد عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء أنه في سنة ١٨٩٤م ناقش المستشرق الإيطالي كارلو نيلنو ـ الفونسو ت١٩٣٨م ـ عن معنى بيريكليتوس» فأجاب أن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها المعزي. فقلت: أنا أسأل الدكتور كارلو نيلنو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً؟. فقال: معناه (الذي له حمد كثير). فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ فقال: نعم. فقلت: إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد. فقال: يا أخي أنت تحفظ كثيرا، ثم افترقنا وقد ازددت بذلك تثبتاً في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح: ـ ١٩ [ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد].

انظر: النجار، قصص الأنبياء، القاهرة، دار التراث، (د.ت)، ص٤٧٣ .

«فمتى جاء روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، يل يتكلم مما يسمع ويخبركم بما سيحدث سيمجدني لأنه يأخذ كلامي ويقوله لكم»[1] (يوحنا ١٦ : ١٣).

ولعل هذا مما يوافق قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [سورة النجم].

وفي الإنجيل ما يوافق الحديث عن بعثة النبي ﷺ، ومما ورد في إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٥ : «ومتى جاء المعزي الذي أرسله إليكم من الأب، روح الحق المنبثق من الأب، فهو يشهد لي، وأنتم أيضاً ستشهدون، لأنكم من البدء معي»، وكذلك في يوحنا ١٦ : ١٣ : فمتى جاء روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما سيحدث».

وقد أكد القرآن الكريم أن صفة الرسول ﷺ وأصحابه ممثلة في التوراة والإنجيل معروفة لدى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وذلك في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝٢٩﴾ [سورة الفتح].

---

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، ص ١٦٩.

ومن النصوص الثابتة في سفر أشعيا (١٣/٢١) عنوان: «على العرب» وفيه: «بيتوا في صحراء العرب يا قوافل الدادانيين، هاتوا ماء للعطشان يا سكان تيما، استقبلوا الهارب الجائع بالخبز، هم هاربون من أمام السيوف، من أمام السيف المسلول والقوس المشدودة وويلات الحرب».[١]

ولعل هذا النص يشير إلى الوحي الذي نزل على النبي العربي الأمين محمد ﷺ. ـ والأمر في نظري هذا ـ محل اجتهاد، فيه إشارة إلى هروب اليهود من بلاد العرب أمام سيف النبي ﷺ وسيوف أصحابه من بعده، إشارة إلى سقوطهم وخروجهم بعد ذلك من خيبر زمن عمر باتجاه الشام مروراً بتيماء،[٢] قبيل الفتح الإسلامي زمن السيف المسلول والقوس المشدودة زمن (الفتح الإسلامي) وهذا استشعار للنص قد يكون محل نظر. والله أعلم.

وكذلك يمكن استشعار الحديث عن سيطرة المسلمين على بيت المقدس زمن عمر بن الخطاب، ولعل من ذلك ما ورد في إنجيل متى (٢١/ ٥): «قولوا لابنه صهيون هو ذا مليكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان و جحش بن أتان»، ومن المعروف من زعماء النصرانية فيها أن عمر كان متواضعاً راكباً على حماره،

---

(١) الكتاب المقدس، ص ٤٨٥.

(٢) انظر: موضوع فتح خيبر من هذا الكتاب؛ والبلاذري، فتوح البلدان، ص٤٨.

وقد ذكر علماؤهم في حينها أنهم يجدون صفته في كتبهم[1] فلعل هذا ما يشير إليه النص السابق، ـ وهذا اجتهاد مني ـ.

وقد لاحظت أن بعض من حللوا النص، ومنهم عبد الأحد داود، لم يتطرقوا إلى ربطه بفتح بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب ﵁.[2] بل ربما بعضهم ربطه بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة شمالاً، وهذا اجتهاد محل نظر في تصوري.

وما من شكٍ على الإطلاق بورود شيء من الحديث عن فتح المسلمين للبلاد في الكتب السابقة عند اليهود والنصارى، ولعل ما يصدق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء]، والزبور من الكتب السابقة للنبي ﷺ نزل على داوود وتلاه يهود.

وقد ورد في صحيح البخاري شيء من صفة رسول الله ﷺ في التوراة فيما روى عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما): «أنه قيل لعبد الله بن عمرو، أخبرنا بعض صفة رسول الله في التوراة، فقال إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت

---

(١) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٥؛ والطبري، تاريخه، ج٤/ ١٥٩.

(٢) عبد الأحد داوود، محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ص٨٩، ٩٠.

عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تجزي بالسيئة الحسنة، وتعفو وتغفر، ولن أقبضه حتى أقيم له الملة العوجاء، فأفتح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُماً، وقلوباً غُلفاً، بأن يقولوا لا إله إلا الله». [1]

ولعل هذا الحديث يقابله فيما تبقى من بعض الحق عند يهود ما ورد في سفر أشعياً.

عبد الرب «سفر أشعياً» ٤٢ : ١ ـ ٨ :

«ها عبدي الذي أسانده، والذي اخترته ورضيت به! جعلت روحي عليه، فيأتي للأمم بالعدل، لا يصيح ولا يرفع صوته، ولا يسمع في الشارع صراخه، قصبة مرضوضة لا يكسر وشعلة خامدة لا يطفئ، بأمانة يقضي بالعدل، لا يلوي ولا ينكسر، حتى يقيم العدل في الأرض، فشريعته رجاء الشعوب، هذا ما قال الرب خالق السماوات وناشرها باسط الأرض مع خيراتها، وواهب شعبها نسمة الحياة روحاً للسائرين فيها.

«أنا الرب دعوتك في صدق وأخذت بيدك وحفظتك. جعلتك عهداً للشعوب ونوراً لهداية الأمم، فتفتح العيون العمياء، وتخرج الأسرى من السجون والجالسين في الظلمة من الحبوس أنا الرب، وهذا إسمي».

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السخب بالأسواق، ج٣/ ٢١.

وقد ورد هذا النص في إنجيل متى (١٢ : ١٨) منسوباً إلى النبي أشعيا، وحاولوا ربط الصفات الواردة بالمسيح عليه السلام.[(١)]

ولعل فيها إشارات كثيرة لما ورد عن النبي ﷺ في القرآن من أنه المصطفى والسراج المنير.

وقد ورد نص في أسفار اليهود سفر التثنية ٣٣. جاء فيه: «وهذه هي البركة التي بارك فيها موسى رجل الله نبي إسرائيل قبيل موته فقال: «أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من جبل سعير وتجلى من فاران»، والنص لا يزال في العهد القديم المتداول وفاران هي منطقة مكة المكرمة،[(٢)] حيث نزل الوحي على رسول الله ﷺ، ولعل هذا النص مع ما فيه من تحريف يمكن حين قراءته تذكر ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [سورة التين]، وفي سفر التكوين ٢١ : ٨ ـ ٢٠ ما يؤكد على أن فاران هي موطن هاجر وابنها إسماعيل بعد أن أخذهما إبراهيم إلى صحراء فاران. وفي النص إشارة إلى بئر زمزم وشرب هاجر وطفلها منه.

---

(١) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل متى بعنوان: «الله المختار» ١٢ : ١٨، ص٢١.

(٢) انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤/ ٢٢٥؛ وانظر: موسوعة ويكيبيديا العالمية الالكترونية، التي وصفت فاران بأنه جبل حراء بمكة المكرمة، (www.ar.wikipedoa.com).

طرد هاجر وإسماعيل ٢١ : ٨ ـ ٢١ :

«وكبر الصبي وفطم، وأقام إبراهيم وليمة عظيمة في يوم فطام إسحق، ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يلعب مع ابنها إسحق، فقالت لإبراهيم: «أطرد هذه الجارية وابنها! فابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق». وساء إبراهيمَ هذا الكلام، لأن إسماعيل، كان أيضاً ابنه. فقال له الله: «لا يسوؤك هذا الكلام على الصبي وعلى جاريتك. اسمع لكل ما تقوله لك سارة، لأن بإسحق يكون لك نسل. وابن الجارية أيضاً أجعله أمةً لأنه من صلبك».

فبكّر إبراهيم في الغد وأخذ خبزاً وقربة ماءٍ، فأعطاهما لهاجر ووضع الصبي على كتفها وصرفها، فمضت تهيم على وجهها في صحراء بئر سبع. ونفد الماء من القربة، فألقت هاجر الصبي تحت إحدى الأشجار ومضت فجلست قبالته على بعد رميتي قوس وهي تقول في نفسها: «لا أريد أن أرى الولد يموت». وفيما هي جالسة رفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الصبي، فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: «ما لك يا هاجر؟ لا تخافي. سمع الله صوت الصبي حيث هو. قومي احملي الصبيّ وخذي بيده، فسأجعله أمة عظيمة»، وفتح الله بصيرتها فرأت بئر ماء، فمضت إلى البئر وملأت القربة ماء وسقت الصبي».

وكان الله مع الصبي حتى كبر، فأقام بالصحراء، كان رامياً

بالقوس. وحين أقام بصحراء فَارَان، زوجته أمه بامرأة من أرض مصر.

ولاشك أن هذا النص تعرض لتحريفات كثيرة، ومع ذلك بقيت إشارات تصدق ما ورد عن إسماعيل ونبع الماء له في فاران (مكة) وتؤكد ما ذكره الرسول عن إسماعيل في قوله: (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً).[١]

ومن المؤكد أنه لم يُعرف إدعاءٌ بنبوةٍ لأي إنسان في فاران منطقة مكة في أي زمن بعد عيسى عليه السلام، بل إن الله حمى هذا المكان من ظهور أي مدِّعٍ للنبوة، فمع ظهور متنبئين بعد الرسول في اليمن ونجد واليمامة، فإنه لم يظهر أي مدِّعٍ للنبوة في مكة لا قبل الرسول صلى الله عليه وسلم ولا بعده، وهذا من حماية الله له.

وقد ورد في سفر حبقوق ٣ ـ ٦، وهو من أسفار العهد القديم (التوراة) ما نصه: «الله يجيء من تيمان، القدوس من جبل فاران، غطى جلاله السماوات وامتلأت الأرض من التهلل له. يجيء كلمعان البرق ومن يده يسطع النور وفيها تستتر عزته. قدام وجهه يسير الوباء ووراء قدميه الموت، يقف فتهتز الأرض، وينظر فترتعد الأمم تتحطم جبال الدهر، وتنخسف تلال الأزل، حيث سار في قديم الزمان».[٢]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، ج٣/ ٢٢٧.

(٢) ص ١١٧٤ من العهد القديم.

وقد تحدث الكثير من المصادر عن تغيير أصاب هذا السفر في طبعاته الأخيرة، وأنه اختُزل في أصله المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٤م على نص جاء فيه: «وامتلأت الأرض من تحميد أحمد ملك بيمينه رقاب الأمم». وفي النسخة المطبوعة في لندن ١٨٤٨م، ونسخة بيروت ١٨٨٤م: «لقد أضاءت السماء من بهاء محمد وامتلأت الأرض من حمد زجرك في الأنهار، واحتدام صوتك في البحار، يا محمد ادن لقد رأتك الجبال فارتاعت».[1] لعل في هذا تصديقاً لقوله ﷺ: (نُصِرْتُ بالرعب مسيرة عام).[2]

كما ورد في إنجيل متى (١١ : ١٤) بشارة من عيسى بالقادم من بعده في قوله: «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي».

وفي إنجيل لوقا (١ : ١٤): «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرّة» ويؤكد العلماء، على أن الترجمة محرفة وأنها في الأصل: ((اقترب السلام للأرض وتيسيره بين الناس محمد)).[3]

---

(١) انظر: مجلة البشارات، العدد الأول. نقلاً عن: http://www.hurras.org (بتاريخ ٢٧/ ١١/ ٢٠١٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب نصرت بالرعب مسيرة شهر، ج٤/ ١٢.

(٣) انظر: عبد الأحد داود ١٣٨،
وأحمد أحمد علي السقا، غصن الرب في سفر أشعيا النبي، ص٥٤.

وضمن الأناجيل المعروفة إنجيل برنابا (*Gospel of Barnaba*)،[1] وهو إنجيل مشهور اكتشف في الفاتيكان في أوائل القرن السادس عشرالميلادي،[2] وقد طبع بعد ذلك باللغات الإيطالية والأسبانية والإنجليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي.[3]

وتشير بعض الدراسات إلى أن البابا جلاسيوس سنة ٤٩٢م قبل بعث النبي ﷺ قد أشار إلى إنجيل برنابا ووضعه ضمن قائمة الكتب المنهي عنها.[4]

ويصر الكثير من المنتمين للكنيسة على إنكارهم لهذا الإنجيل وما ورد فيه ـ لوضوح ما فيه من أخبار عن الرسول ﷺ كما سيأتي ـ، مع أن طبعاته الأولى كانت قبل قرابة ٣٠٠ سنة باللغات الأوروبية؛ الأسبانية والإيطالية والإنجليزية، ولم يعرف في العالم العربي وبين المسلمين إلا من خلال تلك الطبعات الأوروبية منذ قرابة مائة سنة تقريباً.

---

(١) إنجيل برنابا (Gospel of Barnaba) ترجمه من الإنجليزية إلى العربية الدكتور خليل سعادة، ١٩٠٨م، نقلاً عن النسخة الإنجيلزية التي ترجمها لونسدال راغ ولورا راغ من النسخة الإيطالية الأصلية التي سربت من مكتبة الفاتيكان، وقد قدم للترجمة وعلق عليها الدكتور أحمد حجازي السقا، نشرتها دار الأمل، أربد، الأردن، ٢٠٠٥م، وقد حظيت الترجمة بعناية خاصة من الشيخ محمد رشيد رضا في المنار سنة ١٣٢٦هـ.

(٢) www.ar.wikipedoa.com

(٣) www.ar.wikipedoa.com

(٤) انظر: إنجيل برنابا، ترجمة الدكتور: خليل سعادة، ص٩٨.

والملاحظ لمن يطالع هذا الإنجيل تشابه بعض ما ورد فيه بما ورد في القرآن من التوحيد والنهي عن الشرك ومن بشرية المسيح عليه السلام، ورفضه أن يعبد أو أن ينسب ابناً لله ويؤكد على أنه رسول بشر ابن لمريم عليها السلام من لحم ودم.

وقد وردت إشارات واضحة لمحمد ﷺ في إنجيل برنابا، مع التصريح باسمه كما هو محمد، ومن ذلك ما ورد في الإصحاح الثالث والستين بعد المائة:

«وذهب يسوع مع تلاميذه إلى البرية وراء الأردن، فلما انقضت صلاة الظهيرة جلس بجانب نخلة وجلس تلاميذه تحت ظل النخلة، حينئذ قال يسوع: أيها الإخوة إن سبق الاصطفاء لسر عظيم حتى أني أقول لكم الحق: إنه لا يعلمه جلياً إلا إنسان واحد فقط، وهو الذي تتطلع إليه الأمم الذي تتجلى له أسرار الله تجلياً، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم، لأن الله سيظللهم كما تظللنا هذه النخلة، بلى: إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا تقي رحمة الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان.

أجاب التلاميذ: يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول الله، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها، كما يجعل المطر الأرض تعطي ثمراً بعد انقطاع المطر زمناً

طويلاً فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله وهي رحمة ينشرها الله رذاذاً على المؤمنين كالغيث».[1]

ولعل هذا الكلام يذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦)﴾ [الصف].

كما جاء في الإصحاح الرابع والعشرين بعد المائة ما نصه: «لما كان الله واحداً كان الحق واحداً، فينتج من ذلك: أن التعليم واحد وأن معنى التعليم واحد فالإيمان إذاً واحد، الحق أقول لكم: إنه لو لم يمح الحق من كتاب موسى لما أعطى الله داود أبانا الكتاب الثاني، ولو لم يفسد كتاب داود لم يعهد الله بإنجيله إليّ، لأن الرب إلهنا غير متغير ولقد نطق رسالة واحدة لكل البشر، فمتى جاء رسول الله يجيء ليطهر كل ما أفسد الفجار من كتابي حينئذ أجاب من يكتب: يا معلم ماذا يجب على المرء فعله متى فسدت الشريعة وتكلم النبي المدعي؟ أجاب يسوع: إن سؤالك لعظيم يا برنابا، لذلك أفيدك أن الذين يخلصون في مثل ذلك الوقت قليلون لأن الناس لا يفكرون في غايتهم التي هي الله، لعمر الله الذي تقف في حضرته إن كل تعليم يحول الإنسان عن غايته التي هي الله لشر تعليم، لذلك

(١) إنجيل برنابا، ص٢٩٣.

يجب عليك ملاحظة ثلاثة أمور في التعليم: أي المحبة لله وعطف المرء على قريبه وبغضك لنفسك التي أغضبت الله وتغضبه كل يوم، فتجنب كل تعليم مضاد لهذه الرؤوس الثلاثة لأنه شرير جداً».

ومن الشواهد في إنجيل برنابا في الإصحاح الثامن بعد المائتين:[1]

«فقل له: من كان ابن إبراهيم هذا؟ أجاب يسوع: إن غيرة شرفك يا الله تؤججني ولا أقدر أن أسكت، الحق أقول: إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيّا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض».

وقد ورد في إنجيل برنابا شيء من خصائص الرسول ﷺ ومن ذلك موقفه في الشفاعة الكبرى للخلق يوم القيامة، ومع أنه من الواضح أن في النص تحريف ففيه كلام من بقايا الحق نطلع عليه، على أن لا نتجاوز ما ورد في الأحاديث الصحيحة من خصائص الرسول ﷺ.

يصف برنابا هذا الموقف للرسول ﷺ نقلاً عن كلام عيسى عليه السلام في الإصحاح الرابع والخمسين، والخامس والخمسين في نص طويل يتفق في مضمونه مع حديث الشفاعة، ويختلف في بعض ألفاظه، وهي محل نظر، وما ورد يؤكد

---

(١) إنجيل برنابا، ص ٣٢٧.

معرفة تلاميذ عيسى عليه السلام وبرنابا واحد منهم، بهذه المكرمة والخاصية للمصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد جاء فيها (٥٤ : ١٢ : ٣٣)، (ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون: أذكرنا يا محمد، فتتحرك الرحمة في رسول الله لصراخهم، وينظر فيما فعله خائفاً لأجل خلاصهم، ثم يحيي الله بعد ذلك كل مخلوق فتعود إلى وجودها الأول، وسيكون لكل منها قوة النطق علاوة، ثم يحيي الله بعد ذلك المنبوذين كلهم الذين عند قيامتهم يخاف سائر خلق الله بسبب قبح منظرهم، ويصرخون: أيها الرب إلهنا لا تدعنا من رحمتك، وبعد هذا يقيم الله الشيطان الذي سيصير كل مخلوق عند النظر إليه كميت خوفاً من هيئة منظره المريع، ثم قال يسوع: أرجو الله أن لا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم، إن رسول الله وحده لا يتهيب هذه المناظر لأنه لا يخاف إلا الله وحده.

ويذهب رسول الله ليجمع كل الأنبياء الذين يكلمهم راغباً إليهم أن يذهبوا معه ليضرعوا إلى الله لأجل المؤمنين، فيعتذر كل أحد خوفاً ولعمر الله إني أنا أيضاً لا أذهب إلى هناك، لأني أعرف ما أعرف وعندما يرى الله ذلك يذكر رسوله كيف أنه خلق كل الأشياء محبة له، فيذهب خوفه ويتقدم إلى العرض وباحترام والملائكة ترنم: تبارك اسمك القدوس يا الله إلهنا، ومتى صار على مقربة من العرض يفتح الله لرسوله كخليل، لخليله بعد طول الأمد على اللقاء، ويبدأ رسول الله بالكلام أولاً فيقول:

إني أعبدك وأحبك يا إلهي، وأشكرك من كل قلبي ونفسي، لأنك أردت فخلقتني لأكون عبدك، وخلقت كل شيء حباً فيّ لأحبك لأجل كل شيء وفي كل شيء وفوق كل شيء، فليحمدك كل خلائقك يا إلهي، حينئذ تقول كل مخلوقات الله: نشكرك يا رب وتبارك اسمك القدوس، الحق أقول لكم: إن الشياطين والمنبوذين مع الشيطان يبكون حينئذ: حتى أنه ليجري من الماء من عين الواحد منهم أكثر مما في الأردن، ومع هذا فلا يرون الله، ويكلم الله رسوله قائلاً: مرحباً بك يا عبدي الأمين، فاطلب ما تريد، تنل كل شيء، فيجيب رسول الله: يا رب أذكر أنك لما خلقتني قلت: إنك أردت أن تخلق العالم والجنة والملائكة والناس حباً فيِّ ليمجدوك بي. أنا عبدك، لذلك أضرع إليك أيها الرب الإله الرحيم العادل أن تذكر وعدك لعبدك، فيجيب الله كخليل يمازح خليله، ويقول: أعندك شهود على هذا يا خليلي محمداً؟ فيقول باحترام: نعم يارب، فيقول الله: اذهب وادعهم يا جبريل، فيأتي جبريل إلى رسول الله ويقول: من هم شهودك أيها السيد؟ فيجيب رسول الله: هم آدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وداود ويسوع بن مريم، فينصرف الملاك وينادي الشهود المذكورين الذين يحضرون إلى هناك خائفين.

فمتى حضروا يقول لهم الله: أتذكرون ما أثبته رسولي؟ فيجيبون: أيُّ شيء يا رب؟ فيقول الله: إني خلقت كل شيء حباً

فيّ ليحمدني كل الخلائق به، فيجيب كل منهم: عندنا ثلاثة شهود أفضل منا يا رب، فيجيب الله: ومن هم هؤلاء الثلاثة؟ فيقول موسى: الأول الكتاب الذي أعطيتنيه. ويقول داود: الثاني الكتاب الذي أعطيتنيه، ويقول الذي يكلمكم: يا رب إن العالم كله أغره الشيطان فقال: إني كنت ابنك[1] وشريكك، ولكن الكتاب الذي أعطيتنيه قال حقاً: إني أنا عبدك، ويعترف ذلك الكتاب بما أثبته رسولك، فيتكلم حينئذ رسول الله ويقول: هكذا يقول الكتاب الذي أعطيتنيه يا رب، فعندما يقول رسول الله هذا يتكلم الله قائلاً: إن ما فعلت الآن إنما فعلته ليعلم كل أحد مبلغ حبي لك، وبعد أن يتكلم هكذا يعطي الله رسوله كتاباً مكتوباً فيه أسماء كل مختاري الله، لذلك يسجد كل مخلوق لله قائلاً: لك وحدك اللهم المجد والإكرام لأنك وهبتنا لرسولك.[2]

ولعل هذا مع تحريفه يوافق في بعض معناه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ

(١) هذا يؤكد براءة عيسى من الشرك به وأن ذلك من الشيطان ويؤكد عبوديته لله تعالى.

(٢) انظر: إنجيل برنابا، ص ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦.

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة]

وهذا الحوار الرباني مع عيسى عليه السلام يكون يوم القيامة.

كما توجد شواهد كثيرة من إنجيل برنابا فيها أحاديث للمسيح عليه السلام شبيهة بأحاديث رسول الله ﷺ، ومن ذلك وصف الجنة في الإصحاح التاسع والستين بعد المائة: «لم تر عينا إنسان ولم تسمع أذناه ولم يدرك قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه».(١)

وهذا موافق لقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]، وهذا مصداق لقول المصطفى ﷺ عن الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).(٢)

كما يتفق إنجيل برنابا مع ما عند المسلمين في القرآن والسنة عموماً دون التفصيل فيما يرتبط بالمسيح نفسه ورفعه إلى السماء، وذلك في الإصحاح السادس عشر بعد المائتين فيما نصه: «فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة

(١) إنجيل برنابا، ص٢٩٨.
(٢) متفق عليه. انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة السجدة، ج٦/ ٢١.

على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد». [1]

وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء].

ونحن لا نشك أن التحريف وقع في كتب اليهود والنصارى الأصلية وما تفرع منها باعترافهم هم، ومع ذلك فإن الحق واضح عند بعضهم، خصوصاً أن الرسول ﷺ إنما دعاهم لتوحيد الله واحترام الأنبياء السابقين وتقديرهم والسير على مبادئهم من تقدير الله وتعظيمه، والوصاية بشرعه الذي جاء به أنبياؤه السابقون: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وقد كان الأمر واضحاً عند رسول الله ﷺ في مكاتبته لهرقل وغيره من زعماء النصارى في زمانه.

مثقفو الغرب المعاصرون ونظرتهم للنبي ﷺ

يلاحظ أن عدداً كبيراً من المثقفين الغربيين خلال القرنين الماضيين شهدوا بصدق الرسول ﷺ أو أشاروا إلى شيء من

---

(١) إنجيل برنابا، ص٣٣٤.

ذلك في كلام منصف إلى حد ما، وإن اختلفنا معهم في النصوص والمضمون أحياناً. وقد كان الكثير من الدارسين الأوروبيين لشخصية الرسول ﷺ غير منصفين،[1] يقول درمنغم «من المؤسف حقاً أن بالغ هؤلاء المتخصّصون في النقد أحياناً فلم تزل كتبهم رسماً، وكانت كتبهم عامل هدم على الخصوص».[2]

وقد اهتمت مؤلفات عدة بهذا الموضوع وأوردت شواهد له.[3]

ولعل القرن الثامن عشر هو من أكثر القرون بدايةً لظهور حقائق علمية في الغرب تنصف الرسول ﷺ في عيون الأوروبيين، كما ذكر مكسيم رودنسن:

---

(١) الكردي: راجح عبدالحميد، شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٦هـ، ص١٥.
انظر: محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط٥، دار المنار، القاهرة ١٣٦٧هـ.

(٢) درمنغم: إميل، حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٨.

(٣) انظر: الحسيني الحسيني معدي، الرسول ﷺ، في عيون غربية منصفه، ط١ ـ القاهرة: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦م.
وانظر: عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص ٢٢٥؛ وانظر: أحمد بن حجر ال بو طامي، الإسلام في نظر منصفي الشرق والغرب وعدنان النحوي، النبي العظيم والرحمة المهداة.

(Maxim Rudensn) في قوله: «بظهور عدد من المؤرخين الأوروبيين المستنيرين في القرن الثامن عشر بدأت تكتمل معالم صورة، هي صورة محمد الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع». [(١)]

ويشير الكاتب الإنجليزي برنارد شو:

(Gerorge Bernard shaw)، إلى بداية تفهم أوروبا لمحمد ﷺ رغم محاولة تشويه صورته في قوله: «إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد، وبدأت تعيش دينه، كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية مما اتهمها بها من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى». [(٢)]

كما يشير مارسيل بورزار (Marcel Pourzar) إلى ظهور الحق حول محمد ﷺ ودينه رغم التشوية فيقول: «سبق أن كُتب كل شيء عن نبي الإسلام ﷺ فأنوار التاريخ تسطع على حياته التي نعرفها في أدق تفاصيلها، والصورة التي خلفها محمد ﷺ عن نفسه تبدو، حتى وإن عُمد إلى تشويهها، علمية في الحدود التي تكشف فيها وهي تندمج في ظاهرة الإسلام عن مظهر المفهوم الديني وتتيح إدراك عظمته الحقيقية».

«لم يكن محمد ﷺ على الصعيد التاريخي مبشراً بدين

---

(١) الحسيني معدي، ص ١٢٩.

(٢) الحسيني معدي، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص١٠٥.

وحسب، بل كان كذلك مؤسس سياسة غيّرت مجرى التاريخ، وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق». [1]

لقد كانت دراسة حياة الرسول ﷺ مؤثراً كبيراً على بعض الغربيين رغم محدودية مصادرهم للدراسات وتشويه بعضها للحقائق، إلا أن وميض الحق بين الأسطر أعطى بعضاً منها انطباعاً قوياً صادقاً أثر على مجرى حياتهم بقوة. فهذا لامارتين (Alphonse de lamartine) يقول ما نصه: «أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، من ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان؟! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرساً لتبليغ الرسالة وصلواته أركان العقيدة. إن الرسول والخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقديس الصور هو محمد، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق ». [2]

ويؤكد برّوي (Eduard Perroy) على أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء وأن شريعته إلهية شاملة ونظام اجتماعي خلاق

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٢.

فيقول: «جاء محمد بن عبدالله ﷺ، النبي العربي وخاتم النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد. كانت الشريعة «في دعوته» لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضاً الأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد أعداء المسلمين.. ونشر الدين الحنيف.. وعندما قُبض النبي العربي ﷺ، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل».[١]

كما يدافع (لا تنز) عن الرسول ﷺ وعن الوحي المنزل ويؤكد على وجود الكثير من العلامات الدالة على صدق نبوته في قوله: «بقدر ما أعرف من دينَيْ اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ﷺ ليس اقتباساً بل قد أوحي إليه به ولا ريب بذلك، طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم. وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، والإيمان القلبي الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط

(١) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص١١٢.

لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد ﷺ وأنه قد أوحي إليه».

إن الديانة النصرانية التي ودّ محمد ﷺ إعادتها لأصلها النقي كما بشر بها المسيح عليه السلام تخالف التعاليم السّرية التي أذاعها بولس (Paul) والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى .. ولقد كانت آمال محمد ﷺ وأمانيه أن لا تخصص بركة دين إبراهيم عليه السلام لقومه خاصة، بل تعم الناس جميعاً، ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام.[١]

ولعل من أهم ما لفت نظر بعض عقلاء الغربيين قضية التوحيد، وهي جوهر الدين الذي دعا إليه الرسول ﷺ وأخبر ﷺ أنها دعوة الأنبياء جميعاً، كما جاء ذلك في آيات قرآنية متعددة وأحاديث نبوية.

يقول فولتير (Voltaire): «إن عقيدة محمد خالية من الشك والغموض، والقرآن شهادة مجيدة على وحدانية الله».[٢]

ويقول روم لاندو (Rom Landau): «.. لم ينسب محمد ﷺ في أيّما يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية أو قوى

---

(١) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص ١٥٢.

(٢) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص١٦٧.

أعجوبية». على العكس، لقد كان حريصاً على النَّص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس».

كان محمد ﷺ تقياً بالفطرة، وكان من غير ريب مهيأً لحمل رسالة الإسلام التي تلقاها.. وبالإضافة إلى طبيعته الروحية، كان في سرّه وجهره رجلاً عملياً عرف مواطن الضعف ومواطن القوة في الخُلق العربي، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية ينبغي أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطاً وإلى المدنيين الوثنيين، وفي آن معاً، على نحو تدرّجي.. وفي الوقت نفسه كان محمد ﷺ يملك إيماناً لا يلين بفكرة الإله الواحد.. وعزماً راسخاً على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب.

كانت مهمة محمد ﷺ هائلة، «كانت مهمة ليس في ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية» وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين الرسول العربي ﷺ، أن يرجو النجاح في تحقيقها بمجهوده الشخصي. إن الإخلاص الذي تكشف عنه محمد ﷺ في أداء رسالته، وما كان لأتباعه من إيمان كامل في ما أنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد ﷺ بأنه ضرب من الخداع المتعمد، ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق «ديني» متعمد استطاع أن يعمر طويلاً. والإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا

يزال يكتسب في كل عام، أتباعاً جدداً، وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحداً.[1]

ويؤكد توينبي (Arnold J. Toynbee): على قضية التوحيد عند الرسول وما يرتبط بذلك من التشريع ونظام تبعها سلطة تنفيذية أو لقوة وإقامة للعدل فيقول: «لقد كرَّس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية (وهما الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في الحكم)، وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معاً .. فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ السهب الأوراسي..».[2]

ويستشهد واشنجتون إيرفنغ (washington Irving) بحادثه فتح مكة ليؤكد أن محمداً خاتم الأنبياء فيقول ما نصه: "كان محمد ﷺ خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعو الناس إلى عبادة الله».

كانت تصرفات الرسول ﷺ في: «أعقاب فتح» مكة تدل

(١) المصدر السابق، ص١٥٠.

(٢) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص١١٦.

على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو».

«لقي الرسول من أجل نشر الإسلام كثيراً من العناء، وبذل عدة تضحيات، فقد شك الكثيرون في صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحاً كبيراً، وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك وتخلى عن كل متع الحياة وعن السعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة». [(١)]

ويؤكد إدوارد رمسي (Edward Ramsay) رسالة النبي ﷺ وتركيزه على التوحيد فيقول: «جاء محمد للعالم برسالة الواحد القهار، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فبزغ فجر جديد كان يُرى في الأفق، وفي اليوم الذي أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد ما فقد من العدل والحرية أتى الوحي من عند الله إلى رسول كريم، ففتحت حججه العقلية السديدة أعين أمة جاهلة، فانتبه العرب، وتحققوا أنهم كانوا نائمين في أحضان العبودية». [(٢)]

وتقول كارين أرمسترونغ (Karen Armstrong): «وعلى

---

(١) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص١١١.
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٣.

هذا، فإن كان ذلك النصر السياسي هو الإنجاز الوحيد لمحمد فمن حقه علينا أن يحوز إعجابنا، لكن نجاح محمد اعتمد على الرؤية الدينية التي نقلها العرب، والتي اعتنقتها بدورها الرعية من شعوب الإمبراطورية، وذلك لأنها لبت حاجة روحانية لديهم، غير أن محمداً والمسلمين الأوائل لم يحققوا انتصاراتهم بسهولة كما يحلو للبعض أن يتخيل، ولكنهم اشتبكوا في معارك شرسة يائسة، ولولا أن الاعتبار الأول للنبي ورفاقه المقربين كان للدين، ما كتب لهم البقاء». (١)

وكثير من الغربيين يصف الرسول ﷺ بالمصلح وبصاحب الرؤية، ويمتدحه وإن لم يؤمن به، يقول جولد تسهبر: «... الحق أن محمداً كان بلا شك أول مصلح حقيقي في الشعب العربي من الجهة التاريخية، ففي هذا العصر نرى النبي يستخدم حنكته المفكرة ورويته الدقيقة وتبصره العالي، في مقاومة خصومه الذين شرعوا في معارضة مقاصده وغاياته في داخل موطنه وخارجه». (٢)

وقد ضاق بعضهم ذرعاً بعدم إيمان الغربيين بنبوة الرسول ﷺ واعتبر ذلك عاراً عليهم، يقول توماس كارليل (Tomas Carlyle): «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد

---

(١) كارين أرمسترونج، سيرة النبي محمد، ص ٧٣.

(٢) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص١٤٨.

متحدث هذا العصر أن يصغى إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاع مزوّر».[1]

وهذا المؤرخ الأمريكي المشهور ول ديورانت (Will Durant) الذي عرف عندهم بأنه أبو التاريخ يقول:

«يبدو أن أحداً لم يُعنَ بتعليم محمد ﷺ القراءة والكتابة.. ولم يُعرف عنه أنه كتب شيئاً بنفسه.. ولكن هذا لم يَحُلْ بينه وبين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفاً قلّما يصل إليه أرقى الناس تعليماً، كان النبي من مهرة القواد.. ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكاً، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم، وإذا ما حكمنا على العظمة.. كان محمد من أعظم عظماء التاريخ».[2]

ويشير بعضهم إلى مثالية الرسول ﷺ وكماله وإلى قصر أوروبا عن ما جاء به ﷺ.

يقول الأديب الألماني غوته (Johann Wolfgang von Goethe):

«إننا أهل أوروبة بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد..، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي

(١) المصدر السابق، ص١٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٨.

محمد. . وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد». [1]

ويشير برنارد شو (Bernard Shaw) الكاتب الإنجليزي الشهير إلى مناسبة تعاليم الرسول ﷺ للعصر الحاضر، وفي هذا إيمان بشريعته وصلاحيتها لكل الأزمنة، وقد انطلقت قبل ١٤٠٠ سنة فيقول: «يجب أن يُسَمَّى منقذ الإنسانية، وإني أعتقد لو أن شخصاً مثله تولى الحكم المطلق في العالم المعاصر، لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب به ما هو في أشد الحاجة إليه من سلام وسعادة». [2]

ويشير غوستاف لو بون (Gustave Le Bon) الطبيب والمؤرخ الفرنسي، إلى بدايات لدى الغرب لإنصاف النبي ﷺ فيقول: «إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمداً مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله. . .

«استطاع محمد ﷺ أن يبدع مثلاً عالياً قوياً للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص .. ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى. . ».

---

(١) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص١٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٧.

«. . . لا شيء أصوب من جمع محمد لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة. ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد». [١]

ويمتدح إيتين دينيه رسول الله ﷺ وشخصيته وتميزها فيقول:

«إن الشخصية التي حملها محمد ﷺ بين برديه كانت خارقة للعادة وكانت ذات أثر عظيم جداً حتى إنها طبعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح الإبداع وأعطاها صفة الشيء الجديد . . .». [٢]

ويعبر كتاب أوروبيون بعمق عن إعجابهم بالرسول ﷺ ومنهم: جاك بيرك (Jacques Augustin Berque)، فيقول: «لا شك أن الإسلام الذي اختار الخالق له محمداً كان جديراً بمحمد وكان محمد جديراً به». [٣]

كارل بروكلمان الألماني، يقول: «جعل رسول الإسلام الجزيرة العربية نقطة انطلاق لرسالته العظيمة التي حوربت كثيراً

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٤.

(٢) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص١٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧١.

وما زالت، لكن الانتصار دائماً للحق، وما جاء محمد إلا بالحق والحقيقة». [1]

ويركز هنري سيروي على شخصية الرسول ﷺ وتعبده لله، فيقول: «ومحمد لم يفرض في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب».

«محمد شخصية تاريخية حقة، فلولاه ما استطاع الإسلام أن يمتد ويزداد، ولم يتوان في ترديد أنه بشر مثل الآخرين مآله الموت، وبأنه يطلب العفو والمغفرة من الله عز وجل، وقبل مماته أراد أن يطهر ضميره من كل هفوة أتاها فوقف على المنبر مخاطباً: أيها المسلمون، إذا كنت قد ضربت أحداً فهاكم ظهري ليأخذ ثأره، أو سلبته مالاً فمالي ملكه، . . . . . . وهذا التذوق والإحساس البالغ لفهم محمد لدوره كنبي». [2]

ويؤكد «هنري دي ماستري» تصديقه لرسول الله ﷺ بعد بحث دقيق حول شخصية الرسول ﷺ فيقول:

«إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية علّني أجد في هذا البحث

---

(١) المصدر السابق، ص١٧٠.

(٢) المصدر السابق.

دليلاً جديداً على صدقه وأمانته المتفق عليها بين جميع مؤرخي الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحي».

«ثبت إذن أن محمداً لم يقرأ كتاباً مقدساً ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه..».[1]

أما الروسي تولستوي (Leo Tolstoy) فيبدي قناعته بالهدي الذي حمله الرسول ﷺ ويبدي احترامه وذلك في مقالة له بعنوان «من هو محمد؟»:

«إن محمداً هو مؤسس ورسول، كان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق جعلها تجنح إلى السكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقدم عليه إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال».[2]

ويؤكد وليم موير (Willaim muir) تميُّز الرسول ﷺ رفعاً لفضيلته وأخلاقه، فيقول:

«لقد امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ

---

(١) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص ١٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٢.

النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل نبي الإسلام محمد» .[١]

وتظهر لدى بعض الغربيين قناعة بنبوة رسول الله ﷺ، بل يؤكد بعضهم أنه خاتم الأنبياء وأنه جدير بهذا الشرف العظيم. يقول العالم الفرنسي كليمانت (Clement):

«لم يكن محمد نبياً عادياً، بل استحق عن جدارة أن يكون خاتم الأنبياء، ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلماً» .[٢]

وقد امتدح كثير من الغربيين موقف النبي محمدﷺ من النصرانية والديانات السماوية الأخرى، وإنصافه لأهلها واحترامه للمسيحعليه السلام فهذا برناردو شو (George Bernard show)، يقول:

«لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيحعليه السلام ، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأوروبة بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي» .

«وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٦ .

(٢) المصدر السابق، ص١٧١ .

الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحاً قوياً، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم».

«لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً سوى محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة، ومؤسس دولة.. هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ». [1]

كما يؤكد آخرون إنصاف الرسول للديانات الأخرى فتقول الكاتبة الإيطالية لورا فيشيا فاغليري Laura Veccia Vaglieri ما نصه: «كان محمد المتمسك دائماً بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة، لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعاً الأناة دائماً اعتقاداً منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور.. لقد عرف جيداً أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري». [2]

وأشار بعض النصارى إلى موقف الرسول ﷺ من عيسى عليه السلام، واحترامه له في السنة والقرآن المنزل عليه. يقول

---

(١) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص١٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٧.

وانظر: http: WWW. islam-love.com بتاريخ ٢٧/ ١١/ ٢٠١٠.

المستشرق الفرنسي لويس سيديو: «لقد حل الوقت الذي توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة الأمر في زاوية من آسية فارتقت إلى أعلى مقام، فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون، ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد».

«. . لم يعد محمد نفسه غير خاتم لأنبياء الله عليهم السلام وهو قد أعلن أن عيسى بن مريم كان ذا موهبة في الإتيان بالمعجزات، مع أن محمداً لم يعط مثل هذه الموهبة، وما أكثر ما كان يعترض محتجاً على بعض ما يعزوه إليه اشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة».[1]

وهناك آراء كثيرة لبعض من اهتدى من نصارى الغرب بعد بحث طويل تحدثوا فيها عن ما تعرفوا عليه من حقيقة النبي ﷺ ما دفعهم إلى الإيمان به وتصديقه وهي شواهد كثيرة يصعب حصرها.

وفي توقعي أنه بسبب الاتصالات الحديثة والترابط بين العالم وسرعة وصول المعلومة سيكون أمثال هؤلاء المهتدين المطلعين على حقيقة الرسول ﷺ كثراً، وسيصعب تضليل الناس كما كان يُفعل ذلك سابقاً، بسبب الوسائل الحديثة التي أتاحت للعالم أجمع الاطلاع عن كثب على مصادر أكثر صدقاً عن حياة الرسول ﷺ.

---

(١) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص١٣٤.

ولعل من هؤلاء المهتدين السيدة ايفلين كوبولد (Lady E. Cobold) التي أسلمت وزارت المدينة وسجلت انطباعها في قولها: «. . هذه هي مدينة الرسول ﷺ. . تعيد إلى نفسي ذكرى جهوده في سبيل لا إله إلا الله، وتلقي في روعي صبره على المكاره واحتماله للأذى في سبيل الوحدانية الإلهية».

«كان العرب قبل محمد ﷺ أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد ﷺ بعث هذه الأمة بعثاً جديداً يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً. . »[(١)].

ومن هؤلاء د. دوران (*Dr. M. H. Durran*)، الذي كان قسيساً فأسلم، حيث يقول: «أستطيع أن أقول بكل قوة أنه لا يوجد مسلم جديد واحد لا يحمل في نفسه العرفان بالجميل لسيدنا محمد ﷺ، لما غمره به من حب وعون وهداية وإلهام فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا وحباً بنا حتى نقتفي أثره».

«. . . وأخيراً أخذت أدرس حياة النبي محمد ﷺ فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني، الذي أقام مملكة لله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين، لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغير طرق

---

(١) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص١٤٧.

تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة، التي لم تنجب رجلاً عظيماً واحداً يستحق الذكر منذ عدة قرون، أصبحت تحت تأثيره وهديه ألوفاً من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية وتعلم الناس أمور الدين الجديد». [(١)]

ويعد الكسندر ويب: (Alexander Russell webb)، أحد من درس الإسلام وشخصية نبيه ﷺ، وتأثر بذلك البحث ودخل في الإسلام عن قناعة، بعد دراسات مقارنة فدعا الغربيين لمثل هذه الدراسات العلمية المحايدة فقال: «لم أجد في الأنبياء جميعاً أعظم ولا أكمل من محمد ﷺ وتعالوا أناقشكم في ذلك، أو اقرأوا كل شيء عنه وعن دينه وقارنوا بينه وبين سابقيه وبين رسالته العظيمة ورسالاتهم».

«اقرأوا بفهم ومحايدة، ستجدونه أعظم رسول، ستجدون رسالته أعظم الرسالات جميعاً». [(٢)]

العرب

كان غالبية العرب في الحجاز خصوصاً وثنيين لا صلة لهم

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٧١.

بعلوم السماء وكتب الله السابقة إلى الأنبياء إلا قليلاً منهم عرفوا ذلك، ودلت إشارات مختلفة لبعض من كان منهم على الحنفية بمعرفتهم بقرب زمن نبي يبعث، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل الذي عرف ما نزل على الرسول ﷺ حينما عرضت خديجة خبره عليه فقال: ((هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك))،[١] وكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية،[٢] وكان من أقرب الناس في مكة إلى دين إبراهيم وأخلاقه واشتهر بالرحمة والتوحيد وإحياء الموؤدة.

وكذلك كان زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان على الحنيفية يعيب على قريش عبادة الأصنام، ولا يأكل مما ذبح على النصب، وقد درس اليهودية والنصرانية ولم يقتنع بهما وقال: (اللهم إني أشهدك إني على دين إبراهيم)،[٣] ولا يستبعد أن يكون عنده علم بقرب مبعث النبي ﷺ خصوصاً أنه التقى بعلماء أهل الكتاب في الشام وغيرها، كما كان منقذاً لموؤدات من البنات يتكفل بهن ويمنع أهلهن من وأدهن،[٤] وهو شاعر له أبيات تدل على توحيده لله يقول فيها:

---

(١) انظر: موضوع نزول الوحي على الرسول ﷺ من هذا الكتاب.

(٢) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية. وانظر: صحيح البخاري (باب كيف بدء الوحي)، ج١/ ٢.

(٣) انظر: محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ص٨٣؛ وصحيح البخاري، باب زيد بن عمرو بن نفيل، ج٤/ ٢٣٣.

(٤) انظر: صحيح البخاري، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، ج٤/ ٢٣٢.

أَرَبٌ واحـــــدٌ أم ألــــفُ ربٍّ
أديــنُ إذا تــقــسّــمــتِ الأمــورُ

عـزلـتُ الـلاتَ والـعِـزى جـمـيـعاً
كـذلـك يـفـعـل الـجَـلِدُ الـصَّـبُـورُ

فـلا عِـزّىٰ أديـنُ ولا ابـنـتَـيْـهـا
ولا صَـنَـمَـيْ بـنـي عـمـروٍ أزورُ[1]

ومنهم قس بن ساعدة الأيادي، الذي رآه الرسول ﷺ في سوق عكاظ وسأل عنه وقد تحدث عن القس مع قومه حينما جاؤوا إلى المدينة، ودلت الروايات على أنه كان يشير إلى قرب مبعث نبي، ويطلب من الناس الإيمان به وتصديقه حين يُبعث،[2] وهو شاعر اشتهر بأبياته الوعظية ومنها:

في الذاهبينَ الأولينَ من القرون لنا بصائرْ
لمّا رأيتُ مواردًا للموت ليس لها مَصَادِرْ

ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغرُ والأكابرْ
أيقنت أني لا محالةَ حيث صار القوم صائرْ

وقد ذُكر شيء من ذلك عن أمية بن أبي الصلت، إلا أنه مات كافراً، وقد عاش سنوات في حياة النبي ﷺ ووصله خبره

---

(١) السيرة النبوية، لابن كثير، ج١/ ١٤٢.

(٢) انظر: محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/ ٨٠. انظر مهدي رزق الله، صفوة السيرة، ص ٣٦.

ولم يظهر منه إسلام رغم قربه من مكة، حيث يقيم في الطائف وما حولها. .[1]

وكذلك الشاعر المشهور لبيد بن ربيعة ذُكر عنه شيء من ذلك، ومنه إيمانه بالله وبالبعث وهو القائل:

أَلا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ
وكلّ نعيمٍ لا مَحَالَة زائلُ

في أبيات مشهورة، وقد أسلم، وأدرك زمن عثمان، ومات معمِّراً بعد ذلك.[2]

وقد نقلت بعض الكتب والمصادر أخباراً كثيرة عن كهان العرب،[3] تتحدث عن مبعث النبي ﷺ، أرى الإعراض عنها وعدم ذكرها، فقد نُهينا عن متابعة أقوالهم، والسيرة ليست بحاجة لأي شواهد من هذا النوع.

وبالتالي يمكن القول إن وثنيي العرب وخصوصاً منطقة الحجاز، ما كانوا يؤمنون بالأنبياء عليهم السلام قبل محمد ﷺ، وبالتالي ما كانوا يؤمنون بقرب مبعث نبي آخر الزمان، أو يذكرونه أو ينتظرونه، سوى من ذكرنا من أفراد قلائل، تركوا ما عليه القوم وعرفوا هذا العلم من كتب اليهود والنصارى، وهؤلاء هم الأحناف الذين كانوا على توحيد إبراهيم عليه السلام.

---

(١) محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ص ٨٥.
(٢) ابن حجر، الإصابة، ج٣/٣٢٦.
(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٣٤٤.

عصر الرسول ﷺ

إن الحديث عن سيرة الرسول ﷺ يتطلب منا تحديد عصره الذي عاش فيه بدقة، وهو ما يعرف عند الباحثين بزمن الدراسة أو الإطار الزماني، وإن كان ما يرتبط بعلم السيرة النبوية يبدأ قبل ولادة الرسول ﷺ. ولذلك فإن البداية الزمنية لعصر الرسول ﷺ قبل ولادته بفترة يصعب تحديدها، لارتباط ذلك بحياة قريش في مكة، وبوالدي رسول الله ﷺ وبجده وقومه، وما جرى لهم من حوادث، إضافة إلى بعض الإرهاصات الأخرى التي سبقت مبعث النبي ﷺ، وآذنت بقرب رسالته ومبعثه رحمة للعالمين.

ويرى الكثيرون أن مولده هو بداية عصره ﷺ، وهذا هو الأرجح خصوصاً ما يتعلق بحياته وسيرته ﷺ، مع العلم أن عهد الرسالة أو النبوة يعد من بداية بعثته، وهذا لا ينتفي مع الأول إذ إن التاريخ لحياته ليس خاصاً بما بعد البعثة بل يشمل ما قبل ولادة المصطفى ﷺ، كما أن التاريخ عموماً والحضاري منه

خصوصاً يصعب تحديده بحدث واحد، فالاجتهادات والحوادث مترابطة..

ومولده ﷺ في يوم اثنين من عام الفيل، وهذا ثابت بنص حديث نبوي قال فيه ﷺ (يوم الاثنين يوم ولدت فيه)،[١] وذكر كثير من العلماء أن مولده كان في ١٢ من ربيع الأول عام الفيل ويوافق سنة ٥٧١م.

ولا شك أن التحديد الزمني الدقيق لا ينطبق أحياناً على عصر معين يكون امتداده في ما قبله، وخصوصاً في مثل الدراسات التاريخية والحضارية، فكل شخص يرتبط بالبيئة المحيطة، وإن أمكن تحديد عصر الرسول ﷺ بدقة من ميلاده إلى وفاته فلا يمكن عزله عن ما سبقه.[٢]

أما نهاية عصر الرسول ﷺ فهو موضع إجماع تام، حيث كانت بوفاته ﷺ ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول الموافق ٨ حزيران/ يونيو سنة ٦٣٣م.[٣]

ولعل وسط هذا العصر وعقده حادثة الهجرة التي قسمته

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم: ١١٦٢.

(٢) انظر: د. عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، ص ٣٨؛ ومحمد عزة دروزة، عصر النبي، دار اليقظة، بيروت، ١٣٨٤هـ.

(٣) عبد السلام الترمانيني، أزمنة التاريخ الإسلامي، ج١/ ٢٩.

إلى قسمين رئيسين وكانت في السنة الأولى من الهجرة وتوافق سنة ٦٢٢م.[١]

وكان الرسول ﷺ طيلة عصره محركاً لأحداث غيرت وجه العالم إلى يومنا الحاضر، هذا التأثير في تاريخ البشرية لم يكن له مثيل على الإطلاق، فمعظم الشخصيات يقتصر تأثيرها على زمانها وأيام أحداثها وتمتد أحياناً لفترات متفاوته. أما عصر الرسول ﷺ وعهده فهو المؤثر على كافة أصقاع الأرض دونما استثناء، وذكره مستمر وحيّ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولا شك في أن زمنه وقرنه وجيله ﷺ أفضل القرون و(الأجيال)، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: ((بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنٍ حتى كنت من القرن الذي كنت فيه)).[٢]

---

(١) عبد السلام الترمانيني، أزمنة التاريخ الإسلامي، ج١/ ٣٤٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، ج٦/٥٦٦؛ وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل، ما ذكر في الكف من الصحابة.

موطن الرسول ﷺ

مكة أو أم القرى[1] هي موطن النبي ﷺ بها ولد، وبها بعث، وفيها تربى وترعرع وتزوج، وعمل وعاش معظم حياته، وربى ذريته، واختار أصحابه.

تقع مكة في بطن وادٍ، حيث وضع إبراهيم زوجته هاجر وابنها إسماعيل ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم].

كانت مكة موطن التوحيد الأول في بلاد العرب منذ أيام

(١) أشهر من أن تعرف، وكُتبتْ فيها وفي موقعها وجغرافيتها مؤلفات عديدة، منها: الأزرقي، أخبار مكة، والفاكهي، أخبار مكة، وابن فهد القرشي، غاية المرام بأخبار البلد الحرام، وكذلك إتحاف الورى بأخبار أم القرى، والفاسي: شفاء الغرام، إضافة إلى عدد كبير من المؤلفات القديمة والحديثة يصعب حصرها.

سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، حيث دعا إبراهيم لها ولأهله، وبنى الكعبة، وحج الأنبياء من بعده لهذا البيت والحَرَم:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

أما طبيعتها الجغرافية فتختلف عن كثير من أجزاء الجزيرة العربية، حيث تحيط الجبال بالوادي من كل مكان.

وتسكن قريش وأحلافها مكة، وهي قبيلة متحضرة ذات أسفار وتجارة، وعلاقات خارجية جيدة مقارنة ببقية القبائل والبلدان،(١) ويجاورها بالقرب من مكة كنانة والأحابيش يعيشون في الأودية القريبة منها، وهم حلفاء لقريش، ويعملون

(١) طالع: أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

معها في حراسة قوافلها التجارية، التي كانت تربط الشام باليمن ويقوم عليها اقتصاد مكة، مع عمل بسيط في الحرف الأخرى، يأتي في مقدمتها الرعي وبعض الصناعات البسيطة. كما يوجد بعض الموالي في مكة سواء من أصول أفريقية أو رومية أو عربية أحياناً.

وترتبط مكة بأحلاف مختلفة تؤمن قوافلها التجارية، كما ورد في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [قريش].

وكانت تجارتها مصدر رزق ورخاء، حيث تعد واسطة في التجارة بين أنحاء العرب، وكانت قريش تحاول الوقوف على الحياد في الصراعات القائمة بين قبائل العرب، ومع ذلك دخلت في حروب مع بعض القبائل المجاورة.

اشتهرت مكة بوجود الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة]، وكانت العرب مع وثنيتها تحج إليها.

وكانت الكعبة رمزاً للتوحيد استمر قروناً عديدة. وقبل مبعث النبي ﷺ دُنِّست الكعبة من الداخل والخارج كما دنس محيط مكة عموماً بأصنام مختلفة، تُعبَد من دون الله تعالى، حتى أصبح الشرك والوثنية سائدين في مكة بين أهلها. ولم

يعرف التوحيد إلا في نفر قليل من (الأحناف) ـ كما مرَّ ذكره ـ احتفظوا بالتوحيد لأنفسهم، وأنكروا على الناس عبادة الأصنام، ولم يُصْغِ لهم أحد من أهل مكة.[1]

كان العرب مع شِرْكهم، ينظرون لمكة موطن الحرم نظرة خاصة، يقدسونها ويحرمون الاعتداء فيها، ويرونها آمنة دون غيرها. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت].

كما اعتبرت أم القرى مركزاً لما حولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى].

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين].

كان لاحترام مكة والكعبة دور كبير في إثارة غيرة أبرهة الحبشي وحفيظته، حيث كان يحكم اليمن وأقام لأهلها بيت (القُليس)،[2] فكانوا يسخرون منه ويمجدون الكعبة فوصل في حملته المشهورة سنة ٥٧١م.

---

(١) انظر: الموضوع الخاص بحال العرب قبل الإسلام من هذا الكتاب، وانظر: جواد علي، المفصل، ج٦/ ٤٤٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٤؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٩١.

وهو العام الذي ولد فيه النبي ﷺ، قاصداً مكة لهدم الكعبة، حيث قابله عبد المطلب جد النبي ﷺ وقال كلمته المشهورة (للبيت رب يحميه).[١] وفي رواية «للبيت رب سيمنعه» كما سيأتي،[٢] ومع أبرهة قوة عظيمة، تتقدمها الفيلة فسلط الله عليهم الطير الأبابيل[٣] كما ذكر تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل].

كانت مكة مقسمة إلى أرباع بين أقسام قريش وأفخاذها المختلفة، يمكن من خلالها تحديد مواطنهم وبيوتهم وتجمعاتهم داخل مكة، كما كانت لدى هذه الفصائل وظائف محددة في القبيلة، منها السقاية والرفادة، والراية،[٤] كما كانت تفرض العُشور كنوع من الضريبة على التجار القادمين لمكة.

واشتهرت مكة بدار الندوة،[٥] التي يجتمع فيها أهل الرأي المعروفين في قريش بـ (الملأ) وهم الزعماء الذين كانوا يسعون لقوة قريش ووحدتها.

---

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٩٢.

(٢) انظر: تحت عنوان «العرب» من **هذا الكتاب**.

(٣) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٩٠.

(٤) انظر: الزبيري، نسب قريش، وابن حبيب، المحبّر.

(٥) الأزرقي، تاريخ مكة، ص ١٠٧، ١١٠، ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص ٨٧.

لم تكن عشيرة النبي، وهم بنو هاشم، من أكثر الناس ثراء في مكة، ومع ذلك فهي أعلاها نسباً وأكثرها خدمة لزائري مكة من الحجاج وغيرهم، فكانت لهم السقاية (سقاية الحجاج) والرفادة (إطعامهم) حتى لو اضطروا للاستدانة في بعض الأحيان للقيام بهذه الأمور. (١)

وفي كل بطون قريش وُجِد زعماء وأصحاب رأي وقادة أشداء، كان بعضهم شديد الخصومة والخلاف للنبي ﷺ عندما أظهر دعوته. (٢)

كما كانوا متمسكين بجاهليتهم مدافعين عن ضلالات قريش حفاظاً على موروثهم من عبادة الأصنام وغيرها، كما يظنون بكل جهل وعَمى بعيداً عن الحق عصبية باطلة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ (٢٢)﴾ [الزخرف].

وبذلك كان تفكيرهم ضعيفاً موروثاً بلا عقل، يقلدون مسائل محدودة وتغيب عنهم المسائل الحاسمة. (٣)

---

(١) انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج١/٥٨، والأزرقي، تاريخ مكة، ص١١٠.

(٢) انظر: موضوع أذى المشركين للرسول ﷺ في هذا الكتاب.
وانظر لمزيد من التفصيلات: السويكت؛ سليمان بن عبدالله، محنة المسلمين في العهد المكي، ط١، مكتبة التوبة،الرياض، ١٤١٢هـ.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٧٨، وانظر: تفسير ابن كثير، سورة النور، ج٢/١٦٧٩.

كانت مكة تموج بالشهوات، ففي وقت كانت قريش أحرص الناس على أعراض الحرائر من النساء،[1] كان يباح للرجال كل شيء، حيث يتشاركون في الجارية الواحدة، يأتون خيام الدعارة التي عرفت فيها صاحبات الخيام من الداعرات اللاتي هنّ في الغالب من الإماء يتاجرون بفروجهن، ويستحللن ما يأتيهن من مال الزنا.[2]

يشربون الخمر ويأكلون الربا ويأتون المعازف والمراقص وكل أسباب الهوى، تغلبهم الشهوات بحكم عدم إيمانهم بالبعث والحساب،[3] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾ [المائدة].

ولعل تصوير جعفر بن أبي طالب للنجاشي حالهم قبل البعثة أبلغ وصف ينقله شاهد عيان معاصر معايش لهم: ((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف)).[4]

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص٩٣.
(٢) محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في أحوال العرب، ج٢/ ٥٢، وانظر: ابن كثير، تفسيره، سورة النور، ج٢/ ١٣٣٢.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير، سورة الجاثية، آية: ٢٤، ج٢/ ١٦٩٩، وانظر: موطن الرسول ﷺ هذا الكتاب.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٣٦.

كان الشِّرك يضرب بأطنابه في مكة، فالكعبة مليئة بالأصنام والصور وساحة الحرم كذلك، لا يكاد يوجد بيت من بيوت مكة إلا وله أصنامه الخاصة.[1]

النسب المختار للمصطفى ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبة) بن هاشم بن عبد مناف بن مضر بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن آدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.[2]

وما بعد عدنان محل نظر عند كثير من العلماء سوى اتصاله بإسماعيل.[3]

وقد ورد أنه ﷺ قال: ((إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيارٌ من خيارٍ من خيار)).[4]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٧٨.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٣، والبخاري يحذف بعض الآباء ويوصله إلى عدنان بن إبراهيم عليه السلام، ج٤/ ٢٣٨.

(٣) ابن القيِّم، زاد المعاد، ج١/ ٧١.

(٤) صحيح مسلم، ج١٥/ ٢٦، شرح النووي.

وقد كانت قريش كلها تقر بعلو نسب رسول الله ﷺ، وهذا ما قاله أبو سفيان لهرقل حين سأله كيف نسبه فيكم قال: هو فينا ذو نسب، فقال هرقل: فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.[1]

ولا شك في أن الله سبحانه وتعالى قد زكى النسب الشريف باصطفاء محمد ﷺ فزادهم النبي شرفاً ورفعةً إلى يوم القيامة، وليس العكس قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ [الأنعام].

آباء المصطفى المختار ﷺ

عبد الله بن عبد المطلب

هو أبو الرسول ﷺ، كان عاشر عشرة من أبناء عبد المطلب من أوسطهم، كان كريماً على والده، فزوجه من آمنة بنت وهب من بني زهرة من أفضل قريش نسباً، عمل مساعداً لأبيه في تجارته، توفي في المدينة أثناء إحدى رحلاته إلى الشام، وآمنة حامل برسول الله ﷺ وقيل إن عمره حين وفاته خمس وعشرون سنة.[2]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/١٥٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١/ ٩٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٣؛ الزبيري، نسب قريش، ص٢١؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج١/ ٩١.

أم الرسول ﷺ

آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.[1] أفضل امرأة في قريش نسباً، من أتمهن عقلاً، كان والدها سيد بني زهرة، تزوجها عبد الله بكراً بعد أن خطبها والده عبد المطلب من أبيها، وبنى بها وبقي عند أهلها ثلاثة أيام ثم ارتحلت إلى داره، وحملت برسول الله ﷺ في أيامها الأولى من الزواج الذي لم يستمر طويلا لسفر عبد الله في تجارة والده إلى الشام حيث توفي، وترملت آمنة وهي شابة ففرغت نفسها بعد ذلك للعناية برسول الله ﷺ الذي ولدته يتيماً، وقد سافرت به إلى المدينة في السادسة من عمره لتزور أخوال جده عبدالمطلب من بني النجار، ولتزور قبر زوجها عبد الله، وفي طريق العودة ماتت بالأبْواء،[2] وزار ﷺ قبرها.

روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال استأذنت

---

(١) للمزيد من التفاصيل راجع أم النبي للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).
وانظر: الهاشمي، حسين بن حيدر محبوب، جمهرة أنساب أمهات النبي ﷺ، ط١، دار البخاري، المدينة المنورة وبريدة، ١٤١٨هـ ص٣٠.

(٢) الأبواء: قرية من أعمال المدينة في الطريق القديم إلى مكة فيها قبر آمنة أم النبي ﷺ، وفيها وادٍ مشهور من أودية الحجاز يسمى الآن الخريبة.
(ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ٧٩)؛ عاتق غيث البلادي، معجم الأماكن الواردة في السيرة، ص١٤.

ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت.[١]

عبد المطلب بن هاشم

جد رسول الله ﷺ لأبيه، كان أشرف قريش في زمانه، من أكثرها مالاً، عرف بمكانة خاصة عندهم، فهو الذي أعاد حفر بئر زمزم بناءاً على رؤيا رآها، ونازعته قريش عليها،[٢] لكن أمر السيطرة عليها كان من نصيبه؛ حيث كان هو وأبناؤه يقومون على سقاية الحاج. كان مفاوضاً لأبرهة حينما قدم لهدم الكعبة، عرض على أبرهة المال وما يريد لعله يرجع عن عزمه غزوته تلك، لكن أبرهة رفض ذلك وأعلن أنه جاء لهدم الكعبة، فقال قولته المشهورة (للبيت رب سيمنعه)،[٣] ورد الله كيد أبرهة بالطير الأبابيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾ [الفيل].

وقد سمى عبد المطلب النبي ﷺ بعد ولادته محمداً ورعاه، حيث ولد يتيماً، فكان جده عبد المطلب يعطف ويحن عليه أكثر

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٧/ ٤٦.
(٢) انظر: الزبيري، نسب قريش، ص١٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٤٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٥.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٥٠؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٣٤.

مما يحن على أولاده الآخرين، متذكراً ابنه المتوفى عبد الله رائياً في محمد ﷺ ما لم يكن يراه في الصغار الآخرين، يقربه إليه ويدنيه منه ويعجب منه ومن حسن أدبه وحكمته في التصرف، ويقول: (إن لابني هذا شأناً).[١]

كان يتفقده ويتابعه، ولما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى ابنه أبا طالب به خيراً، و طلب منه أن يضمه إلى أبنائه ويرعاه، وتوفي وعمر الرسول ﷺ قرابة الثماني سنوات، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب، وهو والد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكان من أكرم قريش وأشرفها.[٢]

فأحب أبو طالب محمَّداً ﷺ أكثر من أولاده، فكان يتفقده في نومه، ويصحبه معه في يومه، ويقدمه على أولاده في الطعام والشراب والملبس والجلوس والكلام وغير ذلك، وقد أثر ذلك في نفس النبي ﷺ، فكان وفياً لعمه بعد ذلك ولأبنائه وخصوصاً علي بن أبي طالب عليه السلام.

كما كان للرسول ﷺ من جده عبد المطلب أعمام،[٣] أشهرهم العباس، أسلم وهاجر بعد الفتح،[٤] وأبو لهب كان

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٦٨.

(٢) انظر: ترجمته في الزبيري، نسب قريش، ص٣٩.

(٣) الزبيري، نسب قريش، ص١٧ (م).

(٤) انظر: ترجمته عن ابن حجر في الإصابة، ج٢/ ٢٧١؛ وانظر: ترجمة العباس من هذا الكتاب.

كافراً معانداً للرسول ﷺ، وحمزة سيد الشهداء،[1] وهو أخو الرسول ﷺ من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة، مولاة أبي لهب إضافة إلى أعمام آخرين لم يشهدوا الإسلام.[2]

كما كان للرسول عمات، أشهرهن صفية،[3] أسلمت مبكرة وهاجرت إلى المدينة، وهي أم الزبير بن العوام، ومنهن أم حكيم، وأروى وعاتكة وغيرهن، لم يعرف إسلامهن.[4]

ومن أجداده المشهورين:

هاشم بن عبد مناف

واسمه عمرو، ونعت بهاشم لأنه كان يهشم الثريد للحجاج، ويقدمه مع اللحم لزوار الحرم، قال عنه الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مُسْنتين عجاف

وسنت إليه الرحلتان كلاهما
سفر الشتاء ورحلة الأصياف

---

(١) ابن حجر، الإصابة، ج١/ ٣٥٣،
وانظر ترجمة حمزة: في هذا الكتاب.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٣٤٨؛ وانظر: ترجمتها في المعايشون للرسول من هذا الكتاب.
(٤) انظر الزبيري، نسب قريش، ص ١٨.

وهو أول من نظم رحلة الشتاء والصيف لقريش، تزوج من بني النجار في المدينة، فكان له منهم عبد المطلب جد النبي ﷺ، كما كان له أربعة من الأولاد، وفي عصره قويت مكانة مكة حتى صارت أهم مدن العرب دينياً وتجارياً، وقد مات في غزة من أرض الشام.[١]

عبد مناف

كان أشرف أبناء قصي بن كلاب وأكثرهم مكانة في قريش، وقد تنافس أبناؤه مع عبد الدار وكادت أن تقع بينهم حرب، فتركوا السقاية والرفادة لبني عبد مناف والحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار، وساد السلم بينهم.[٢]

قصي بن كلاب[٣]

عرف عنه الجِدُّ والرأي السديد وكانت له سدانة الكعبة بمكة، كان صاحب جاه في قريش[٤] من أكثرهم مالاً وولداً، وكانت خزاعة تجاور قريشاً في مكة فجمع قصي قريشاً وأحلافهم معهم، وخاض حرباً ضد خزاعة، فأخرجهم من بطن مكة، ثم أطاعه قومه حتى صار كأنه ملكاً لهم، وهو أول من

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٥.
(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٥.
(٣) ابن سعد، السيرة النبوية، الطبقات، ج١/ ٦٦.
(٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢/ ٢٥.

أقام دار الندوة،[1] وهو أول من سن الرفادة في قريش، وكان يكرم الحجاج بالطعام والشراب، وآلت إليه الحجابة واللواء،[2] ونقل ابن هشام شيئاً كثيراً من الشعر عنه وعن شرفه.[3]

أسماء النبي ﷺ[4]

أشهر أسمائه ﷺ (محمد) وقد ورد في القرآن الكريم في أربعة مواضع وسميت باسمه سورة من سور القرآن:

يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد].

وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ج/ ١٠٩.
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٨٨.
(٣) المصدر السابق، ج١/ ٨٩؛ وانظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج١/ ٥٥.
(٤) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٠٤؛ وما كتبه الصالحي الشامي، في سبل الهدى والرشاد بعنوان الباب الثالث في ذكر ما وقفت عليه من أسمائه الشريفة وشرحها وما يتعلق بها من الفوائد، ج١/ ٥٠٠.

مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا (٢٩)﴾ [الفتح].

وقد وضع البخاري في صحيحه في كتاب المناقب باباً سماه (باب ما جاء في أسماء رسول الله أورد فيه حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب).(١)

وقد ألفت كتب في أسماء رسول الله.(٢)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، (باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ) ج٤/ ١٦٢.

(٢) منها: أسماء النبي في القرآن و السنة، عاطف قاسم أمين المليجي. وأسماء الرسول المصطفى ﷺ وألقابه وكناه، لأحمد بن فارس وهو منشور مشهور.
وللسيوطي الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة، وهو منشور متداول،
ولابن القيم فصل نفيس في كتابه جلاء الأفهام، عرج فيه على شيء من هذا.
انظر: http://www.ahlahdeeth.com بتاريخ ٢٧/ ١١/ ٢٠١٠.
كما توسع في ذلك الصالحي الشامي، في سبل الهدى والرشاد ج١/ ٥٠٠.
انظر لمزيد من التوسع: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، السيرة والمدائح النبوية، ج١/ ٣١، من رقم ١٥٢ إلى ١٥٩، مؤسسة آل البيت، عمان، ط١، ١٤١٧هـ، وانظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، ج٤/ ١٦٢.

كما سُمِّي أحمد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

وفي العهد القديم ما يصدق ذلك «سوف يأتي حمده لكل الأمم وسوف أملأ هذا البيت بالمجد».(١)

وقد عرفت له صفات كثيرة(٢) اشتهرت كأسماء له، لكنه قد يشترك مع غيره في الوصف أحياناً، كالمبشر والنذير والهادي والرحمة والأمين والمتوكل والمزمل والمدثر والمصطفى والمختار والصادق والشفيع ﷺ..

ومعنى محمد وأحمد صاحب المحامد والفضائل. ولا يزال يحمد ويثنى عليه في كل زمان ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء].

وقد عرف باسمه لدى أهل الكتب، كما شهد بذلك القرآن الكريم، وكما شهد بذلك بعض علماء النصارى.(٣)

وقد كان ﷺ يكنى بابي القاسم وقد نهى ﷺ الناس أن

---

(١) انظر: عبدالأحد داود، محمد ﷺ كما ورد في كتابات اليهود والنصارى، ص ٣٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، باب صفة النبي ﷺ.

(٣) انظر: موضوع العالم وانتظار الرسول من هذا الكتاب.

يتكنوا بكنيته في حياته،[1] ويكنى كذلك بابي إبراهيم، كناه به جبريل،[2] ولعل ذلك في آخر حياته بعد ولادة ابنه إبراهيم.

ميلاد المصطفى الحبيب

تزوج عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ من آمنة بنت وهب أم الرسول، وبقي معها فترة من الوقت وظهر حملها برسول الله ﷺ وتقدمت بها أشهر الحمل فإذا بعبد الله والد الرسول الله ﷺ يموت قبل أن تتم الحمل[3] وأذن الله للجنين أن يولد في ربوع مكة، رأت أمه قبل مولده ﷺ رؤيا كما ورد عن النبي ﷺ: ((أني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجندل في طينته وسأخبركم عن ذلك أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين)).[4]

وقيل إن أمه رأت عند مولده رؤيا وكأنه خرج منها نور أضاءت منه بصرى من أرض الشام.[5]

---

(١) انظر: صحيح البخاري، فتح البارئ، ج٢٢/ ٣٨٢، ومسلم، ج٣ / ١٦٩٤.

(٢) مهدي رزق الله، صفوة السيرة، ص ٥٩.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج١/ ٩٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٥٨.

(٤) ابن كثير، تفسير، ج١/ ٢١٢؛ وراجع صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، ج٤/ ١٦٢؛ وشرح ابن حجر على الباب.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٥٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٥٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٠٦؛ انظر: د. أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج١/ ١٠١.

وقيل إن قابلته التي ولّدت أمه هي الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

ومن المرجح أن يوم مولده لم يحدد بدقة[1] مع أنه ثبت عنه ﷺ أنه قال: ((يوم الاثنين يوم ولدت فيه)).[2]

وبظروف المولد كان يصعب التحديد، حيث كان عند الناس مولوداً عادياً يتيماً لكنه عند الله المصطفى من البشر، وآخر أنبيائه وأفضل عباده، وما كان أحد من الخلق يعلم ذلك ساعة ولادته أو أثناء حمله، وإلا لسعى شياطين الإنس والجن إلى أذاه، فأخفى الله سره، ولم يطلع أحداً على ذلك حتى رسول الله ﷺ نفسه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى].

وقد اجتهد العلماء في تحديد يوم ميلاده فقال بعضهم إنه ولد في الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل،[3] ويوافق سنة ٥٧١ للميلاد،[4] وهذا الاختلاف في يوم ميلاده لا ينقص من قدره ﷺ،

(١) انظر: تفصيلات الخلاف عند ابن كثير في السيرة النبوية، ج١/ ٢٠٠. وعند الطرهوني في صحيح السيرة، ج١/ ٢٧١.
(٢) صحيح مسلم، ١١٦٢.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٥٨؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/ ١٧٣؛ أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص٩٩؛ أحمد العسيري، موجز التاريخ الإسلامي، ص٥٣.
(٤) انظر: عبد السلام ترمانيني؛ أزمنة التاريخ الإسلامي، ص١١.

فهو سيد ولد آدم ولا شك، ولم يذكر أنه ﷺ انشغل بتحديد هذا اليوم، رغم كثرة توجيهاته وسننه ﷺ، ولم يرد في حديث منسوب له كما أعلم أي ذكر لتحديد دقيق لميلاده ﷺ. ومن المؤكد أن وفاته ﷺ كانت يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة١١هـ، ويوافق الثامن من شهر حزيران سنة ٦٣٢م، وأي احتفال بهذا اليوم فيه تذكير بالوفاة وحزن الأمة ومصابها فيه ﷺ.

وأما مكان ميلاده ﷺ فكانت في دار عمه أبي طالب في شعب بني هاشم، وكانت طوال قرنين كاملين ضمن الدور المجاورة للحرم، انتقلت من مالك إلى آخر، حتى حجت الخيزران أم هارون الرشيد زمن خلافته، فجعلت منها مسجداً، وهي قريبة من الحرم معروف موضعها حالياً، حيث توجد بها مكتبة مكة المكرمة إلى الشرق من الساحة الملاصقة للمسعى وهو أمر متواتر لدى علماء مكة وأهلها.

وبعد ولادته مباشرة أرضعته ثويبة جارية عمه أبي لهب، [١] وحضنته بركة الحبشية (أم أيمن)، جارية والده عبد الله، وكان بها باراً طوال عمرها، حيث أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وشهدت وفاته كما شهدت ولادته ﷺ. [٢] فأتاها أبو بكر وعمر

---

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١٠٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/٢٢٣.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/٢٢٣؛ وانظر: ترجمتها عند ابن حجر، الإصابة، ج٤/٢٥٧؛ وانظر تفصيلات عن أم أيمن في موضوع المعايشون للنبي ﷺ من هذا الكتاب.

ليعزياها في رسول الله ﷺ، فلما أتيا إليها بكت فقالا ما يبكيك قالت: لا أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء فجهشا بالبكاء.(١)

وقد أورد البعض أمارات خارقة للعادة حين ولادته ﷺ كثير منها محل نظر. ومن محبة الرسول ﷺ الحقيقية التثبت منها، وعدم إيرادها إلا إذا ثبتت صحتها، وهذا لا ينقص من قدر الحبيب ﷺ، ولو علم الناس شيئاً من نبوته واصطفاء الله له منذ الميلاد لناله من شرارهم أذىً كبير، ولكن إخفاء أمره رحمة به وحفظاً له، مع أن الله اصطفاه منذ آدم عليه السلام وجعله سيد ولد آدم.

وينبغي لمحبي الرسول ﷺ أن يعرضوا عن ما ذكره بعض الجهال من هواتف الجان والشياطين والكهان يوم مولده فحاشا لله أن يُربَط الحبيب المصطفى ومولده بمثل هذه الخرافات.(٢)

أول ما فعلته أمه ومن معها من النساء بعد ولادة الحبيب المصطفى ﷺ أن أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بذلك المولود اليتيم، لابنه العزيز عبد الله، فأقبل عبد المطلب مسرعاً مسروراً وضم الحبيب إلى صدره، متذكراً يتمه وفقد والده عبدالله، فحمله إلى الكعبة وشكر الله ودعاه(٣) وسماه محمداً،

---

(١) صحيح مسلم، ج/ ٣٤٠٤.
(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/٢١٩؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ص ١٧٧.
(٣) ابـن هشـام، السيـرة النبويـة، ج١ /١٠٩؛ ابـن كثيـر، السيرة النبوية، ج١/ ٢٠٩ و٢٠١.

وهو اسم نادر بل شبه معدوم في حينه عند العرب، لكنه اسم اختاره الله لحبيبه وهدى إليه جده عبد المطلب، وقيل إن أمه سمته أحمد ولا تعارض بين الاسمين. فرح أعمام النبي ﷺ ومنهم أبو لهب الذي أعتق ثويبة حينما بشرته بمولد النبي ﷺ،(1) كما فرح عمه أبو طالب وفرح العباس بن عبد المطلب.(2)

يتيماً آواه الله

قبل الحديث عن يتم الرسول ﷺ يتبادر إلى الذهن عناية الله ورعايته له في يتمه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى] وبالتالي فقد سخر الله له من البشر من أعانه في يتمه، فكانت أمه آمنة بنت وهب تعطف وتحن عليه، حيث ولدته بعد وفاة والده عبد الله، وكان جده عبد المطلب محل والده يكفله ويتفقده ويشفق عليه ما بقي من حياته، حتى وصل عمر الرسول ﷺ ثماني سنوات تخلل ذلك رضاعته في بني سعد.

كان عبد المطلب يُقرب محمداً ﷺ ويدنيه منه ويجلسه إلى جانبه، رغم صغر سنه يخصه بذاك المجلس كما يخصه بالطعام في حضرته.(3)

---

(1) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٢٤.

(2) المصدر السابق، ج١/ ٢٠٩؛ وابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج١/ ١٠٨.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٦٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٣٥؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١١٨.

إن في يتم الرسول ﷺ من البداية تربية من الله له وتأديباً، ودافعاً له للجد والعمل ورحمة من الله له أعلى وأشمل من رحمة الوالدين بولدهما.

وقد انضاف إلى يتمه من أبيه يتمه من أمه، حيث توفيت والدته آمنة بنت وهب عندما بلغ النبي ﷺ ست سنين، وكانت في رحلة إلى المدينة عرفها الرسول ﷺ ووعاها، وكان يحدث عن تلك الرحلة. وعند العودة توفيت في الأبْواء ودفنت هناك. وقد زار النبي ﷺ قبرها بإذن ربه ونُهي عن الاستغفار لها.(١)

وحملته مولاته وحاضنته أم أيمن، وواصلت الطريق إلى مكة، حيث أوصلته إلى جده عبد المطلب، فزاد عطفه عليه ورعايته له، واستمرت حاضنته أم أيمن تتابع وضعه وتقوم على حاله بمتابعة من جده عبد المطلب. كانت مُحبةً للرسول ﷺ وحنوناً عليه عرف لها ﷺ ذلك، وكان يصلها في المدينة بعد الهجرة،(٢) ويقول عنها (هي أمي بعد أمي). كان عبد المطلب يجلسه معه على فراشه حول الكعبة ويميزه عن الصغار، وقد حاول بعض أعمامه أن يجلسوه مع الصغار بعيداً عن مجلس عبدالمطلب الخاص، فيقول لهم عبد المطلب: (دعوا ابني فوالله إن له لشأناً)(٣) ثم يجلسه بجواره، ولما حضرت عبد

---

(١) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ج٧/ ٤٦. وابن كثير، البداية والنهاية، ج٢/ ٢٠٣.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٤٣٢.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٦٨.

المطلب الوفاة أوصى ابنه أبا طالب والد أمير المؤمنين علي ﵁ بكفالة النبي ﷺ، وأن يضمه إلى أبنائه ففعل فكان نعم العم ونعم الراعي الحاني على النبي ﷺ.[1]

كان أبو طالب من أشرف قريش وإن لم يكن كثير المال لكنه كريم النفس عطوفاً، أحب محمداً ﷺ، ولعل حكمة الرسول ﷺ وحسن خلقه وأدبه في صغره أعطت أبا طالب مزيداً من التقدير لرسول الله ﷺ في صغره، فكان يتفقده في نومه وفي طعامه ويخرج به معه في مجالسه، وقد أحس أبو طالب ببركة النبي ﷺ في بيته، وكان ذا عيال يرى تميزه من بينهم في الشرب والأكل والجلوس والمنطق وحسن الأدب والنظافة، مما فطر عليه النبي ﷺ فيزداد أبو طالب حباً للنبي ﷺ.

رضاعة المصطفى المختار ﷺ

كان للرسول ﷺ مرضعات منذ ولادته، أولاهن أمه آمنة بنت وهب أرضعته أياماً عدة.[2] ثم أرضعته ثويبة جارية أبي لهب[3] وكان له منها أخوة من الرضاعة هم عمه حمزة بن عبدالمطلب، وابن عمته أبو سلمه المخزومي.[4]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٧٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٤٢.
(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٢٣.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٢٣؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١٠٨.
(٤) المصدر السابق.

وقد اعتاد العرب على أن يسترضعوا لأبنائهم من البادية حيث الهواء الطلق، والبيئة النظيفة واللغة السليمة، إضافة إلى الحاجة، وخصوصاً عند الأمهات اللاتي لم يكنَّ قادرات على إرضاع أولادهن كحال آمنة أم النبي ﷺ على ما يبدو، التي قيل إنها لم تستطع أرضاعه ﷺ أكثر من تسعة أيام.[1]

وكان أشراف العرب القادرون يختارون لاسترضاع أبنائهم في القبائل فترة الرضاعة، يليها سنوات أخرى من الحضانة والتربية، وخصوصاً مراحل تلقي اللغة حتى السادسة من العمر أو فوق ذلك بقليل.

وكانت قبيلة بني سعد من هوازن تقيم بالقرب من الطائف، وتأتي نساؤها إلى مكة طلباً للولد من قريش، ليقمن بإرضاعهم مقابل المال، وقد جاءت حليمة بنت أبي ذؤيب إلى مكة بحثاً عمَّن ترضعه لعلية القوم من قريش، فعُرِض عليها رسول الله ﷺ وعلى غيرها من نساء بني سعد، فكن يرفضنه إذا علمن أنه يتيم الأب خشية أن لا يحصلن على كثير من المال مقابل إرضاعه، فلما لم تجد حليمة السعدية غيره عادت وأخذته، وهي كارهة أن ترجع دون من ترضعه، لتحصل ولو على القليل من المال مقابل ذلك.

(١) انظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ص١٩١.

فلما أخذته وقع حبه في قلبها، وأرضعته، فوجدت منه بركة عظيمة مذ أخذته من أمه، حتى قال زوجها لقد صحبت نسمة مباركة.[١]

وأحست بالبركة في غنمها وفي طعامها وفي سائر أحوالها، وهي تزيد حباً له ورحمة به، حتى أتم سنتين ففطمته من اللبن وقد شب ﷺ وهي متعلقة به.[٢] فرجعت به إلى أمه في مكة وهي كارهة لذلك، وتود لو يبقى عندها ﷺ فترة أطول. ولما رأته أمه احتضنته وفرحت به وبقي عندها أياماً، ورأت من محبة حليمة وشفقتها عليه ما جعلها تحس بالأمان والاطمئنان عليه عندها.

وأمام إلحاح حليمة السعدية في أن ترجعه معها ليستكمل وقتاً آخر في بني سعد، وافقت آمنة أم النبي ﷺ على ذلك، فرجع إلى ديار بني سعد، وأقام بينهم بعد ذلك قرابة السنتين، وفي مبدأ الخامسة من عمره عادت به حليمة إلى والدته في مكة لتكمل رعايته وعنايتها به.[٣]

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٢٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٦٢؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١١١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٦٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٢٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٦٤؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١١٣.

وقد كان له إخوة من الرضاعة من حليمة السعدية ذكر منهم الشيماء.[١]

وقد أكسبته هذه المدَّة لغة سليمة حتى ورد أنه قال: (أنا أعربكم أنا قرشي واستُرضعت في بني سعد بن بكر).[٢]

وقد شارك إخوانه من الرضاعة شظف عيش البادية، كما أنه شارك في رعي الغنم في مرحلة مبكرة من عمره، وإن لم ترد النصوص بذلك، خصوصاً أنه قد قارب الخامسة من العمر في مضارب البادية فإن أمثاله يقومون بشيء من ذلك، وإن كان بحدود وبالقرب من المنزل، وقد دلت الروايات على اختلاطه بالصغار من أمثاله في مضارب البادية، ولا شك أنه حصلت له مواقف استفاد منها ﷺ وساعدت في نشأته، وقد عرف عنه الأدب منذ صغره في هذه المرحلة ﷺ واعتماده على النفس، ولا شك أن في هذه استمراراً لتأديب الله له ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)).[٣] وقد قال وفد هوازن للنبي ﷺ بعد غزوة حنين وقد أُسرت نساؤهم (إنما في الحظائر ـ أي الأسر ـ عماتك وخالاتك وحواضنك اللائي كن يكفلنك)،[٤] مشيرين بذلك إلى مجموعة

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٣٠١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١ / ١٦٧. وانظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص١٠٣؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١١٢.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١١٠.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢/ ٣٠١.

من نساء ذوات علاقة به من الرضاعة، حينما كان في بني سعد، وكان فيهن الشيماء بنت حليمة السعدية أخته من الرضاعة.(١)

حادثة شق الصدر

أثناء وجود الرسول ﷺ في ديار بني سعد قبل إعادته إلى أمه، ولعله في سن الرابعة ﷺ، كان يلعب مع الصبيان، فحدثت له حادثة شق الصدر التي وردت بطرق مختلفة وبألفاظ بعضها أشمل وأوسع من بعض، ولعل أصحها ما ورد في صحيح مسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: ((أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَه، وأعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني مرضعته) فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره).(٢)

وقد وردت روايات أخرى عن شق صدر الرسول ﷺ عند الإسراء به،(٣) وهذه لا تعارض تلك فقد تكون حالة أخرى،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٦١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٢٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، ج١/ ١٤٧؛ وانظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١١٢.

(٣) من رواية البخاري عن الإسراء والمعراج، ج٤/ ٢٤٨؛ وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٠٨.

وما دامت الرواية نقلت عن الرسول ﷺ بسند صحيح فنؤمن بوقوعها، وهي من كراماته ومعجزاته الخاصة ﷺ، وإذا كانت قدرة البشر الجراحية في الوقت الحاضر يمكنها شق الصدر فالله سبحانه وتعالى أعلم وأقدر وأقوى وألطف، وقد آمن السلف بالرواية في وقت لم يكونوا يتخيلون أن يعيش الإنسان بعد شق صدره.

وقد ذكر بعض العلماء أن هذه الحادثة هي المشار إليها في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح].[١]

وما أحسن قول ابن حجر في هذه الحادثة: (إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم به دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدر فلا يستحيل شيء من ذلك).[٢]

كانت هذه الحادثة من خصائص النبي ﷺ في صباه وقبل مبعثه وإعداداً له للرسالة، وقد ثبتت صحة وقوعها وعلم الرسول ﷺ بها ووعاها كما أنه لم ينقل الحديث عنها بمكة، بل نقل حديثه عنها من أنس بن مالك رضي الله عنه وهو خادمه في المدينة المنورة.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج٢/ ٢٠٧.

(٢) فتح الباري، ج١٥/ ٥٢.

وفي هذه الحادثة تطهير إلهي لقلب الرسول ﷺ من حظ الشيطان منذ صغره ﷺ وحماية وإعداد مبكر لحمل الأمانة والرسالة.(١)

الزيارة الأولى للمدينة

المدينة المنورة بالرسول في حياته وبقبره ﷺ بعد وفاته، مهاجره وعاصمة دولته، ومجتمع أصحابه من المهاجرين والأنصار، له معها قصه في صباه ﷺ.

ذاك أنه حين بلغ السادسة من العمر رغبت أمه أن تزور أخوال والده من بني النجار في المدينة ذوي القربى من زوجها وبالتالي ابنها الصغير محمد ﷺ، ولعلها في الوقت نفسه رغبت في زيارة قبر زوجها عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ، وكان قد مات في المدينة قبل ولادة الرسول ﷺ أثناء رحلة له إلى الشام وكانت آمنة تحس بشيء من العلاقة بين محمد ﷺ وبين أخوال أبيه من بني النجار.

وفي يثرب أمضى ﷺ وهو صبي وقتاً بين أخوال أبيه الكرماء من بني النجار، كان فيها يخالط الصغار ممن قاربه في السن يمرح ويلعب معهم،(٢) وكان ﷺ يذكر ذلك بعد هجرته

---

(١) انظر: تخريج ما ورد حولها من روايات عند ابن كثير في السيرة النبوية، ج١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٦٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٣٥.

إلى المدينة. فقد ورد أن النبي ﷺ نظر إلى دار بني النجار بعد الهجرة قائلاً: ((هنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار)).[1]

وكون الرسول ﷺ تعلم العوم عندهم فقد تطلب الأمر أياماً عديدة وفترة كافية لذلك، بقيها في المدينة مع أمه.

وفي طريق العودة من المدينة توفيت والدة المصطفى ﷺ: (بالأبْواء) في الطريق بين مكة والمدينة كما ذكرنا سابقاً.

توفيت الأم الحانية (آمنة بنت وهب) أم النبي ﷺ ودفنت هناك وعرف الرسول ﷺ قبرها،[2] وقد مر بقبرها بعد الهجرة فبكى. ففي حديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال: استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكِّركم الموت)).[3]

كان ﷺ رقيقاً باكياً على أمه، وقد وردت روايات فيها:

---

(١) شرح المواهب اللدانيّة، ج١/ ١٦٧؛ وانظر محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ص ٢٠٦؛ وانظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١١٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/١٦٨؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١١٦؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/٢٣٦.
وانظر ترجمتها في: آباء المصطفى من هذا الكتاب.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، شرح النووي، ج٧/ ٤٦.

انتهى النبي ﷺ إلى رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى فاستقبله عمر رضي الله عنه فقال ما يبكيك يا رسول الله فقال: ((هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي، واستأذنته الاستغفار لها فأبى علي، وأدركتني رقتها فبكيت، قال: فما رأيته ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة)).[١]

شبابه ﷺ

نشأ رسول الله ﷺ في رعاية جده عبد المطلب فمات وله من العمر ثماني سنوات، فرعاه وكفله عمه أبو طالب، وعنده عاش ﷺ بقية صباه ثم شبابه، وكان أبو طالب متعلقاً به محباً له. وقد دلت الروايات على اختلافها اصطحاب أبي طالب له في إحدى رحلاته إلى الشام.[٢] وقد أورد بعض الرواة قصة بُحَيْرة الراهب في رحلة لأبي طالب إلى الشام، وهي رواية أسقطها كثير من العلماء مع أنها وردت بأسانيد مقبولة عند الترمذي وغيره وقد شكك فيها الذهبي[٣] وابن القيم في زاد

(١) من رواية مسلم في صحيحه، ج٧/٤٦؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١١٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ص٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/١٨٠؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١٢١؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ١٠٥؛ انظر: المغازي، ابن أبي شيبة، ص٩١. وانظر تعليق المحقق.

(٣) السيرة النبوية، ص ٥٥.

المعاد[1] وغيرهم من علماء السيرة المعاصرين،[2] وقد استغلها كثير من المستشرقين في محاولة نسبة دعوة الرسول إلى الإسلام لما تلقاه من الراهب، ومحاولة نسبه القرآن لما تعلمه من بحيرة، متجاهلين أبسط القواعد العلمية في العقل والقياس، وصغر سن النبي لو صحت الرحلة والرواية، فأين هم من تواتر نزول القرآن حسب الأحداث التي ذكرتها الآيات طيلة حياته ﷺ إلى آخر أيام الرسول ﷺ، لكن العمى عن الحق والكره للنبي ﷺ جعلا هؤلاء يتمسكون بمثل هذه الرواية متجاهلين أبسط القواعد العلمية تبعاً لهواهم.[3]

كان ﷺ يستشعر المسؤولية الملقاة على عمه أبي طالب ويحاول بجدية تقديم ما يمكنه لمساعدته في إعالة أولاده، ولذلك اشتغل ﷺ في رعي الغنم في سن مبكرة، وكان يساعد عمه بما يحصل عليه من مال جراء الرعي قال ﷺ : ((ما بعث

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج١/ ٧٦.

(٢) د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج١/ ١١١؛ والندوي، السيرة النبوية، ص١٠٥.

(٣) انظر: فنسنك وآخرين، دائرة المعارف الإسلامية، ج٣/ ٣٩٨؛ ***(R. Goltheril, «Achri stristian Bahira legencl.» Zcits Chrift Fur Assyriologie, 13 (1898) pp. 189-242: 14 (1898) pp. 203-268, 151900. pp. 56-102, 16 (1903) pp. 125-166)***؛ نقلاً عن محمد فارس الجميل، رحله النبي ﷺ إلى الشام، قراءة نقدية، ص ٧، بحث غير منشور في حينه.

الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله ﷺ قال: نعم كنت أرعاها على قراريط[1] لأهل مكة)).[2]

ولا شك أن في رعيه للغنم حكمة ربانية شاركه فيها الأنبياء قبله، فهم رعاة للبشر، ومروا بمراحل تأديبية رباهم الله فيها، ومنها رعي الغنم، وهي تعلم الشفقة والعطف على الضعيف، والتفقد والمتابعة والاهتمام والصبر، وفي ذكره ﷺ لهذا الأمر تواضع لله ومقارنة لحاله مع الأنبياء قبله، الذين مارسوا هذه المهنة.

كما أن هذا العمل من أبواب الكسب الذي يورث عزة النفس، والغنى عن الآخرين، ومساعدة من هو بحاجة النبي ﷺ مثل عمه، فيما يحصل عليه من مال الرعي. وقد كان الرسول ﷺ جاداً يعلم الصحابة العمل والكسب والإنتاج والاستغناء عن الآخرين، وحياة الكدح.[3]

كان ﷺ منذ وعى كارهاً للأصنام، مبغضاً لها، لم يشهد شيئاً من مشاهدها التي كانت قريش حريصة عليها، ويشهدها أعمامه لكنه لا يشهد معهم، كما لم يُعرف انه مسّ صنماً بيده

---

(١) جمع قيراط وهو جزء من الدينار (ابن حجر، فتح الباري، ج١٠/ ٥)؛ وانظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٢٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، ج٣/ ٤٨.

(٣) انظر ما كتبه الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة حول (حياة الكدح)، ص٥٩.

قط أو أقسم بها، وقد حلف زيد بن ثابت أنه ما مسّ بيده صنماً قط،[١] وقد فكر مرة في أن يشهد سمراً لشباب قريش فمنعه الله من ذلك وعصمه، حيث أخذته سِنةٌ من نوم منعته من الحضور.[٢]

وعصمه الله من المعاصي قبيل بعثته ﷺ في صباه وشبابه ورجولته ومن كل قبيح.[٣]

ورد أنه كان ينقل حجارة مع صبيان قريش فرفع إزاره ليضع فيه الحجر فسمع من يأمره بشد إزاره.[٤] وهذا يعني ستر عورته ﷺ، مع أن هذا ما كان مستنكراً عند العرب. حيث ثبت بروايات مختلفة أن العُراة كانوا يطوفون بالبيت، ولذلك نهى قبل حجة الوداع عن ذلك.[٥]

كان ﷺ يحب الشعر ويتذوقه في شبابه، ولم يعرف أنه قال شعراً على الإطلاق وهذا يؤكد قول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس]، وهذا يشمل مرحلة ما قبل البعثة، وما بعدها.

---

(١) الذهبي، السيرة النبوية، ص٤٢.

(٢) ابن إسحاق، السير والمغازي، ص٧٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢/ ٣١٢.

(٣) انظر: جمال ما كتبه الندوي في السيرة النبوية بعنوان «التربية الإلهية»، ص١٠٩.

(٤) ابن إسحاق، السير والمغازي، ص ٧٨.

(٥) انظر: صحيح البخاري (باب لا يطوف بالبيت عُريان) ج٢/ ١٧٥.

كما أنه ﷺ كان يكره الخمر، ورغم انتشارها في مكة فلم يعرف أنه شربها قط.

كما انه لم يفتن بالنساء كما يفتن الشباب عادة، مع ما كان فيه من نشاط وقوة حفظ الله غريزته من الهوى.

الصدق والأمانة كانت من صفات الرسول ﷺ في صباه وشبابه،[1] وكان عطوفاً رحيماً رغم صغر سنة ﷺ وحقاً كما قال ﷺ: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)).[2]

وكما قال الله عنه ﷺ ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ (١٢٤)﴾ [الأنعام].

حقاً لقد اصطفاه الله وحفظه ورعاه قبل البعثة وبعدها،[3] إنها حماية إلهية لم تكن إلا لمحمد ﷺ، وتربية ربانية وتأديب من الباري جل وعلا ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ (١٢٤)﴾ [الأنعام].

رجولته ﷺ

لما بلغ الرسول ﷺ مبلغ الرجال كان محل ثقة الناس

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٣.

واحترامهم، فلم يعرف من هو أصدق منه بمكة ولا أكثر أمانة منه حتى أنه عُرِف بالصادق الأمين.[١]

عرف ﷺ بصلته للرحم، وعطفه على الفقراء وأهل الحاجة. ويمكن أن نلخص أهم صفاته في ما قالته عنه خديجة (رضي الله عنها) وقد خبرته عن قرب: ((ما كان الله ليخزيك أبداً إنك لتصل الرحم وتقرئ الضيف وتحمل الكَلَّ وتُكسِب المعدوم وتعين على نوائب الدهر)).[٢]

كان يحمل صفات الإنسانية والرحمة والفضائل؛ أطهر الناس وأَبرُّ الناس، وأعدل الناس وأسماهم خُلقاً ﷺ.

منذ شبابه ورجولته قبل مبعثه وبعده كان همه العدل والإنصاف، وألاَّ يظلم أحداً من الناس، ولذلك شارك وعمره عشرون سنة[٣] في معاهدة مع بعض رجال قريش عرفت (بحلف الفُضول)،[٤] حيث تعاقدوا في دار عبد الله بن جدعان، وكان من أشراف مكة، أن يكونوا يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدّى حقه، وذلك بعد تعرض أحد تجار اليمن من زبيد لظلم من العاص بن وائل السهمي، حيث اشترى منه بضاعة ولم يعطه حقه، وكان نتيجة هذا الحلف رد حق الزبيدي إليه ومنع

(١) المصدر السابق.
(٢) من رواية البخاري في صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي، ج٧/ ١٢٨.
(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ص١٢٨.
(٤) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ص١٢٨.

الظلم بمكة،[1] ولولا مكانة رسول الله ومنزلته لما دُعي لمثل هذا الاجتماع لعليَّة القوم، وقد أثنى الرسول ﷺ على هذا الحلف والمعاهدة بقوله ﷺ: (شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمر النَعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت).[2] محمد ﷺ أولى الناس بخصومه الظَّلَمة ومنعهم من الظلم،[3] سواء كان المظلوم مسلماً أم كافراً.

كان ﷺ له أصدقاء مميزون عرفوا بصدقهم وعلو أخلاقهم في هذه المرحلة، على رأسهم أبو بكر الصديق ﷺ،[4] الذي كان قريباً من سن رسول الله ﷺ مألوفاً في قريش، إضافة إلى أصدقاء آخرين أمناء ورد ثناء الرسول ﷺ عليهم.

كان ﷺ يحج قبل بعثته على سنة إبراهيم، حيث ألهمه الله سبحانه وتعالى أن يفيض من عرفات في وقت كان فيه أهل الحرم من قريش وغيرها ممن يعرفون بالحُمْس من ساكني الحرم، يفيضون من مزدلفة لكن رسول الله ﷺ كان يخالفهم ويفيض من عرفات.[5]

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٥٧؛ الندوي، السيرة النبوية، ص١١٢.
(٢) ابـن سعـد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١٢٨؛ مسند الإمام أحمد، ج١/ ١٩٠؛ وانظر: السيرة النبوية لابن كثير، ج١/٢٥٨؛ وأكرم العمري، صحيح السيرة، ص٤١؛ وانظر: محمد بن رزق طرهوني، صحيح السيرة، ص١٦٥، ٣٢٩.
(٣) انظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ٦٤.
(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٥٠.
(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٩٩.

كما ورد أنه شهد حرب الفِجار بين قريش وعمره دون العشرين سنة،[1] وأنه كان يناول النبل لأعمامه، ولم يذكر أنه قاتل بيده مباشرة، مع أن سنه حينذاك كانت تؤهله لذلك، ويرى بعض الباحثين أنها حرب في الدفاع عن المحارم وهذا من القيم التي اهتم بها الأنبياء.[2]

كانت أمانة محمد ﷺ لافتة للنظر وفي قريش من يرغب في تشغيل أمواله ومن يعمل له في التجارة بِجُعْلٍ معين، وكانت خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) من أثرياء قريش، لا تأمن أيَّ أحد أن يتاجر بمالها، بينما يرغب كثير من الرجال في ذلك، فكانت تسأل وتتحسّس وتبحث عن أكثر الرجال أمانة ليعمل في مالها، مع وجود خبرة في هذا المجال، فسمعت بمحمد ﷺ وصِدْقه وأمانته، فحرصت على أن تستأجره ليعمل في مالها بشيء تجعله له من الربح فوافق ﷺ على العمل في مالها بعد أن استشار عمه أبا طالب. وكانت تبعث معه غلاماً لها يسمى ميسرة يراقبه ويستوثق من عمله، كونها لم تجربه من قبل، فسافر الرسول ﷺ في تجارتها إلى عدد من الأسواق المجاورة لمكة في

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٤؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٢٦.

(٢) انظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ج١/ ٤٣.

بلاد العرب، منها سوق حُباشة[1] وسوق عكاظ،[2] حيث اشترى الرسول ﷺ زيد بن حارثة لأم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) ـ ولعل ذلك بعد زواجه ﷺ من خديجة ـ.

سمعت خديجة (رضي الله عنها) من مولاها ميسرة ما يؤكد لها صدق الرسول ﷺ وأمانته وجربته وخبرته، فقد كان متسامحاً حسن المعاملة، محافظاً على حقوق الآخرين، وكانت عهدت الرجال وخبرتهم وميزتهم. والتعامل بالمال يكشف الرجال، فأعجبت خديجة (رضي الله عنها) بأخلاق النبي ﷺ وأمانته وتقديمه الأدب والأخلاق على المال، وتؤكد الأخبار نمو مال خديجة ببركة النبي ﷺ وعمله لها بأمانة.

لا شك أن أسفار النبي ﷺ في تجارة خديجة ودخوله أسواق العرب واحتكاكه بالناس وزعماء العرب وأشراف القبائل قد أفاده كثيراً، ونمَّى خبرته ومعرفته بالناس والقبائل والبلدان وأخبارها، ولذلك كان يذكر بعض ما سمعه في أسواق العرب بين الحين والآخر مثل ذكره وسؤاله عن قِسّ بن ساعدة وما سمعه منه.[3]

---

(١) حُباشة: مكان في تهامة يبعد عن مكة ست ليال إلى الجنوب على طريق اليمن، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ٢١٠؛ وسعيد الأفغاني، أسواق العرب، ص٢٥٩؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ٢١٠. (وقد وقفتُ على آثار بقرب أحد رفيدة في عسير سنة ١٤٢٩هـ ذكر لنا مرافقونا من أهل المنطقة أنها موقع سوق حُباشة).

(٢) الحلبي، السيرة الحلبية، ج١/ ٢٣٨؛ وانظر: السهيلي، الروض الأنف، ج١/ ٢٨٦.

(٣) القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٩٥.

زواجه من خديجة رضي الله عنها[1]

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي بن كلاب،[2] سيدة شريفة عاقلة حكيمة، والدها خويلد بن أسد من أشراف مكة، قتل في حرب الفِجار، تزوجت قبل رسول الله ﷺ ثم استقلّت صاحبة مال وفير، عُدت من أثرياء مكة كانت تستأجر التجار للمضاربة في مالها، وكان ممن استأجرتهم رسول الله ﷺ، فاختبرته فكان أميناً وبعثت معه في السفر من يرقب حاله فجاءتها الأخبار بأمانته وصدقه وحكمته وكفى بالسفر والمال اختباراً للرجال.

كما أنها ناقشت النبي ﷺ وسمعت منه وتعاملت معه، فرأته رفيع الأخلاق حميد السجايا فأحبته وأعجبت به وبسجاياه، وكانت تسمى عند قومها (الطاهرة العفيفة).[3]

كانت في الأربعين من عمرها، وقد حرص أشراف الرجال

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٧؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٣١.

(٢) وضعه البخاري في صحيحه، باب تزوج النبي ﷺ خديجة وفضلها، ج٤/ ٢٣٠، كتاب المناقب، باب (٢٠).
وانظر: معمر بن المثنى، أبي عبيدة، أزواج النبي ﷺ، تحقيق يوسف علي بديوي، ، دار مكتبة التربية، بيروت ١٤١٠هـ، ص٥٥.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٣٠؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص ١٠٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٦٣.

من قريش على خطبتها والزواج بها لكنها ترد الخطاب بأدب،[١] وكانت تعلم دوافع بعضهم المادية وغيرها فهي صاحبة مال كل يطمع فيها.

ومن خلال عمل الرسول ﷺ لها عرفت زهده في المال مع عفته ونزاهته وطهارته وسمو أخلاقه فرغبت في الزواج منه.[٢]

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى قد هيأ لنبيه الخير، واصطفى له المرأة الصالحة التي رغبت في الزواج منه بمبادرة منها، وبحكمة إلهية.

ومن حيائها لم تستطع أن تفاتح النبي ﷺ بهذا الأمر، لكنها بكل أدب بعثت إليه من صويحباتها من تفاتحه في ذلك وتلمح له في الأمر، ففاتحته وبينت له رغبة خديجة في الزواج منه، مع شرفها ومكانتها في النسب، وأن رغبتها منه لحسن خلقه وصدق حديثه، وقيل إن نفيسة بنت منية جاءت إلى النبي ﷺ وهي الخاطبة فقالت: ما يمنعك أن تتزوج، فقال ما بيدي ما أتزوج به. قالت: فإن كُفيتَ ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة إلا تجيب؟ فسأل ﷺ ومن هي؟ قالت: خديجة، قال ﷺ: من لي بذلك. فقالت نفيسةُ: عَليَّ،[٣] فرغب

---

(١) انظر: محمد الطرهوني، صحيح السيرة، ص١٦٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٨٩؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٣١؛ انظر: الطرهوني، صحيح السيرة، ج١/ ١٦٧.

(٣) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٣٢.

الرسول ﷺ في الزواج العفيف الصحيح ممن رغبت فيه وممن هيأها الله له واختارها.[1]

فسارع إلى أعمامه فذهب معه عَمّاهُ حمزة وأبو طالب وبعض أشراف قريش إلى عم خديجة عمرو بن أسد وخطبوا للنبي ﷺ، وخطب عمه أبو طالب في المناسبة فأثنى على الرسول ﷺ وأبدى الرغبة، فأجابه عمها عمرو بن أسد: هو الفحل لا يُقدح أنفه. وتمت الموافقة وقُدم المهر بعد ذلك من أطيب عريس لأطيب عروس في تاريخ الإنسانية، عشرين ناقة من الإبل.[2] كانت النساء الجميلات كثيرات، وشابات قريش متعددات أمام الرسول ﷺ لكن الله اختار له أفضل النساء، وتم زواج محمد بن عبد الله ﷺ بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها لتصبح أم المؤمنين حبيبة رسول الله أم أولاده وبناته رضوان الله عليهم زوجة في الدنيا وفي الجنة.

ابتدأت حياة النبي ﷺ الزوجية مع امرأة عفيفة عاقلة ناضجة حكيمة تقدر الحبيب محمد ﷺ وتقوم بواجبه، تتبادل معه المودة والوفاء. كان يذكر فضلها دائماً بعد وفاتها بزمن مما يثير غيرة أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، فعن عائشة (رضي الله عنها)

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر إلى موضوع: «خطبة مباركة» عند، الهاشمي عبدالمنعم، في كتابه «أزواج النبي ﷺ» ص٣٥.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٦٣.

قالت: «ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها ولكن كان النبي ﷺ يذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة فيقول إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد».[١] .

كان عمر المصطفى ﷺ خمسة وعشرين عاماً،[٢] قضى معها ﷺ ما يقارب أربعاً وعشرين سنة، وقد روي عن علي عليه السلام أن رسول الله قال: (خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة)،[٣] وأنجبت له جميع أولاده عدا إبراهيم، حيث رزق منها بالقاسم وكان يُكنّى به ثم زينب ثم رُقية فأم كلثوم ففاطمة فعبد الله، ثم لم يبق إلى بعثته سوى رقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة،[٤] وهي التي عاشت بعده بضعة أشهر، وقد أسلمت جميع البنات (رضوان الله عليهن) وهاجرن مع رسول الله ﷺ إلى المدينة واسلم أزواجهن المتأخرون فكانت رقية بعد فراقها

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب تزويج الرسول ﷺ بخديجة، ج٤/ ٢٣١ .

(٢) المقريزي، إمتاع الأسماع، ص١٠ .

(٣) رواه البخاري، باب تزوج النبي ﷺ خديجة وفضلها، ج٤/ ٢٣ .

(٤) ابن زبالة، محمد بن الحسن، منتخب من أزواج النبي ﷺ ـ رواية الزبير بن بكار ـ، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط١، المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ١٤٠١هـ ص٢٣ .
وانظر: ترجمات بنات النبي ﷺ، في موضوع المعايشون للنبي ﷺ من هذا الكتاب.

لابن أبي لهب مع عثمان بن عفان ﷺ،[1] وكانت زينب مع أبي العاص بن الربيع الذي أسلم متأخراً،[2] وكانت أم كلثوم مع عثمان بن عفان ﷺ زوجها إياه النبي ﷺ بعد وفاة رقية،[3] وكانت قبله مع أحد أبناء أبي لهب فارقته لكفره وعناده.[4]

وكَثْرةُ حديث الأمة عن فاطمة (رضي الله عنها) وهي أشهر بنات النبي ﷺ من خديجة،[5] ليس تفضيلاً عن باقي بنات النبي ﷺ لكن لبقائها من بعده، وكونها أم الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ وسيدي شباب أهل الجنة،[6] وإلا فكل بنات النبي ﷺ خيار من خيار من آل بيته الأطهار من أهل الجنة (رضوان الله عليهن).

كان ﷺ يحب خديجة ويقدمها على سائر نسائه، حتى أن عائشة كانت تغار من ذكرها فقالت للنبي ﷺ : هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها، فأجابها ﷺ : ((لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس

---

(١) انظر: ترجمة عثمان بن عفان ﷺ في موضوع المعايشون للرسول ﷺ.
(٢) انظر: ترجمتها في موضوع المعايشون للنبي ﷺ من هذا الكتاب.
(٣) انظر: ترجمتها في موضوع المعايشون للنبي ﷺ من هذا الكتاب.
(٤) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٦٤.
(٥) رواه البخاري في صحيحه، باب تزويج الرسول ﷺ، ص ٢٣٠.
(٦) انظر: تفصيل الحديث عنها في موضوع المعايشون للنبي ﷺ من هذا الكتاب.

وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء)).[1]

وقد ماتت (رضي الله عنها) ولها من العمر خمس وستون سنة. وحقق هذا الزواج لرسول الله ﷺ الراحة النفسية والحضن العاقل المميز للرسول ﷺ ومكانته، اختارها الله تعالى واختار رسوله ﷺ لها من بين سائر الرجال قبل مبعثه، وقفت بأمر الله ورحمته مع الرسول ﷺ ساعة نزول الوحي، استعملت عقلها وأحبته لما تعرف من خلق وصفات فيه، ورحمة الله بالصالحين وحسن ظنها بالله، وأنه لا يخزي الأخيار. راجعت أهل العلم في زمانها «ورقة بن نوفل» حيث أخذت النبي ﷺ لمن يعلم ويثبت، كل هذا كان ثمرة من ثمرات هذا الزواج المبارك ليس على رسول الله ﷺ فحسب، بل على جميع أمة محمد ﷺ، ولا نبالغ إن قلنا إنه أبرك زواج على مستوى الإنسانية. رضي الله عن أمنا خديجة التي أكرمنا الله بها، وببقية أمهات المؤمنين الطاهرات.

حادثة بناء الكعبة

مكة بلد التوحيد والكعبة رمز ذلك منذ أيام إبراهيم عليه السلام إلى أن دنسها مشركو العرب بالأصنام والأوثان.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٦/١١٧؛ وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/١١٧.

وقد تعرضت الكعبة قبل البعثة النبوية بقرابة خمس سنوات لحادثتين أدّتا إلى تصدعها، حيث كانت قريش تغطي الكعبة بالجلود والصوف، تشكل منها أستار الكعبة، يوصل بعضها ببعض، وكان من عادتهم في الجاهلية أن يجمّروا الكعبة بشيء من البخور، فعلق بعض الجمر بأستارها فاحترقت وتصدعت، ثم تعرضت إلى سَيْلٍ هدم جوانب منها، فقررت قريش إعادة بنائها من جديد.[(١)]

كان أسلوب البناء في مكة بسيطاً عماده الحجارة والطين وسقف من الخشب البسيط، وقد مرت سفينة قادمة من بلاد الروم متجهة إلى الحبشة، ولما وصلت قبالة الشعيبة[(٢)] الواقعة غرب مكة وهي ميناؤها في العصر الجاهلي. تحطمت السفينة، وكانت محملة بالأخشاب، ومعها رجل اسمه «باقوم» مشهور بالنجارة فجاءت قريش وأخذت هذه الأخشاب، واستدعت ذلك النجار القبطي ليقوم بعمل سقف الكعبة، وبدأت قريش تهد ما تبقى من الكعبة لتعيد بناءها[(٣)] حتى وصلوا إلى أسس معينة معروفة عندهم لا يتجاوزونها ولا يمسّونها.[(٤)]

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ج١/ ١٦٠.

(٢) ميناء على البحر الأحمر مقابل مكة يعرف بهذا الاسم إلى اليوم. الأزرقي، أخبار مكة، ج١/ ١٦٠؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣/ ٣٥١.

(٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج١/ ١٥٧؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٢/ ٢٢٨.

(٤) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٤٥.

وقبل إعادة بناء الكعبة اتفقت قريش على أن لا يستعينوا بمال حرام في البناء،[1] وكانوا قبل البعثة يميزون الأشياء المحرمة كالزنا والربا وأكل أموال الناس بالباطل وهذا شيء فطري لا يزال الناس إلى اليوم يعرفون حرمته حتى عند غير المسلمين.

أنفقت قريش على البناء من المال الحلال، واستعانوا بالقبطي (باقوم)،[2] وتقاسمت بطون قريش أركان الكعبة وزواياها، حيث اختص كل قوم بجهة من البناء لما يرون في ذلك من الشرف والفخر وحتى لا تذهب بذلك قبيلة دون أخرى أو بطن من قريش دون آخر.[3]

وحينما أتموا البناء اختلفوا في وضع الحجر الأسود مكانه، فكل فريق من قريش يريد أن يذهب بفخر وضع الحجر الأسود في مكانه حتى كادوا أن يقتتلوا.[4]

ثم اتفقوا أن يحكِّموا أول داخل للحرم، فكان أول داخل للحرم هو المصطفى ﷺ فلما رأوه صاحوا جميعاً: «هذا الأمين

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٩٤.

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٤٥؛ السهيلي، الروض الأنف، ج١/ ١٢٤.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ١٩٥.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٩٧.

هذا محمد رضينا بالأمين»، وهذه شهادة مباشرة من قومه له حتى من عاداه بعد ذلك.[1]

فما كان منه ﷺ إلا أن وضع رداءه، وحمل الحجر الأسود ووضعه على الرداء، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطرافه وحملوه، حتى إذا وازى موضعه في الكعبة وضعه الرسول ﷺ بيده الشريفة، فرضي القوم وطابت نفوسهم[2] وكانت كرامة لرسول الله ﷺ من بين سائر قريش قبل مبعثه ﷺ في وقت كان فيه على فطرة إبراهيم عليه السلام.

وقد زاد ﷺ شرفاً ومكانة بين أهل مكة بهذا العمل والحكمة والعقل والهدي الإلهي وهو الموحِّد الوحيد من بينهم.

المعصوم من الشرك الذي لم تمس يده الأصنام قط، مع كرهه الشديد لها، ولما تفعله قريش من شرك ومعاصٍ، فهو لا يشهد مشاهدهم ويكره مواسمهم الشركية المتعددة، إلا أن هذا المشهد المرتبط بالكعبة والحجر الأسود لم يفته، لما فيه من خير وكرامة لرسول الله وللحجر الأسود وبيت الله الحرام.

وقد جزم أصحاب السير على أن عمر الرسول ﷺ حين إعادة بناء الكعبة كان خمسة وثلاثين عاماً.[3]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٩٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ١٩٧، مسند الإمام أحمد، ج٣/ ٤٢٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢/ ٣٢٤؛ الذهبي، السيرة النبوية، ص ٧٧.

لقد كان بناء قريش للكعبة في هذه المرحلة مشهوراً، وقد قصرت بهم النفقة والجد عن استكمال بنائها على قواعد إبراهيم، وظل هذا الأمر يشغل بال الكثيرين حتى أن عائشة رضي الله عنها بعد فتح مكة قالت لرسول الله ﷺ ((أَلم ترَ أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟ قلت يا رسول الله ألا تردها إلى قواعد إبراهيم فقال لولا حَدَثانُ قومك بالكفر لفعلت)). (١)

إرهاصات ما قبل البعثة

الله سبحانه وتعالى اصطفى نبيه وأدبه ورباه وعلمه قبل البعثة بل وقبل الولادة وبعدها، (٢) ولم يعلم أحد من البشر بذلك لحكمة يعلمها الله، وإن كانت البشرية قاطبة وأهل الديانات السماوية خصوصاً بانتظاره ﷺ، وقبيل البعثة حدثت لرسول الله ﷺ بعض الأمور التي تدل على قرب مبعثه، كما سلك ﷺ بعض السلوكيات التي فيها مزيد تقرب إلى الله وتفكر في ملكوته.

ففي حديث رواه مسلم أنه ﷺ قال: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم عليّ قبل أن أبعث). (٣)

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري، كتاب التفسير، باب واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ج٥/ ١٤٩؛ وانظر: ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٢٠٧.

(٢) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص١٠٩؛ ومحمد علي الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ٧٦.

(٣) رواه مسلم، في صحيحه، كتاب الفضائل، باب أني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ، ج٦/ ٥٨.

ثم كان من هذه الإرهاصات الرؤيا الصالحة كما ورد في حديث عائشة (رضي الله عنها): ((إن أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)).[1]

ثم كان رسول الله ﷺ يخرج في شعاب مكة وأوديتها متفكراً في خلق الله يطوي البطون والأودية متأملاً متفكراً ذاكراً الله تعالى موحداً على ملة إبراهيم.[2]

مع ما مضى من عمر الرسول ﷺ قبل الوحي فإن الوحي لم يكن عنده ولا بمشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

ثم إنه حُبِّب إليه الخلاء ﷺ، حيث كان ﷺ موحِّداً على ملة إبراهيم، كارهاً لما عليه قريش، مؤمناً بالله وحده، متفكراً في ملكه، فحبّب إليه الخلوة، واختار لذلك غار حِراء[3] في جبل إلى الشرق من مكة يعرف اليوم بجبل النور على يسار الخارج إلى الطائف من طريق السيل، ـ اليوم ـ فكان ﷺ يصوم

---

(١) من رواية البخاري، كتاب بدء الوحي، حديث رقم/ ٣؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٣٤.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٣٤.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٣٤.

ويخلو في الغار الأيام والليالي ذوات العدد تقرباً إلى الله تعالى، حيث هدي إلى ذلك، ولم يأته به أمر، لكنه سلوك فطري يقرب إلى الله تعالى سلكه المصطفى ﷺ، حتى قيل إنه يمكث شهراً من كل سنة وقد حبب إليه ذلك كما ورد في حديث عائشة (رضي الله عنها) قالت: ((ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث ـ يتعبد ـ فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء)).[1]

ولم يكن ﷺ في هذه المرحلة قد بُعث بعد، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

كان شهر رمضان أحب الشهور إلى النبي ﷺ خلوة وصياماً قبل مبعثه، وكانت خديجة تصبر على بُعد النبي عنها في خلوته، وتعلم أنه رجل خير لن يصيبه من الله إلا كل خير، وتواسيه وتشجعه، وكان ﷺ إذا قضى خلوته ورجع إلى مكة بدأ بالحرم[2] وطاف حول الكعبة متجنباً الأصنام.

كان الغار بوضعه الجغرافي يعطي فرصة قوية للاطلاع على

---

(١) البخاري، الفتح، ج٢٦/ ١٩٧. ومسلم، ج١/ ١٣٩، ١٤٠.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٣٥.

الفضاء ورؤية الأرض من علو ومعرفةِ عظيمِ خلق الله تعالى.[1]

وكان ﷺ منذ أن وعى كريماً معطاءً وقد زاد عطاؤه وكرمه وكثرت مساعدته للمحتاجين عندما قارب الأربعين من عمره، حتى صارت صفة من صفاته التي تميز بها ﷺ، وذكرته بها خديجة عند نزول الوحي، ولعل صدقاته كانت تكثر في شهر رمضان قبل أن يوحي الله له، كما كانت كذلك بعد مبعثه: (حيث كان أجود ما يكون في رمضان).[2]

---

(١) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ص ٢٥٦.

(٢) انظر: حديث البخاري في صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي، (٥)، ج١/ ٤.

البعثة والاصطفاء

الوحي

الوحي بمفهومه الشرعي: (إعلام الله أنبياءه ورسله بما يبلغه الوحي لهم من شرع أو كتاب)[1] بوساطة أو مباشرة ويعني ما أنزله الله على أنبيائه، وله معنى لغوي يعني الإعلام الخفي والسريع.[2]

نزول الوحي

لم يُعرف عن النبي ﷺ قبل نزول الوحي أي ذكر له، أو حديث عنه مع أنه كان ﷺ يُصنع بعين الله إعداداً لهذا اليوم كما فعل الله بموسى عليه السلام الذي قال الله فيه ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ

(١) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص٢٣.
(٢) أبو شهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص ٧٣، محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/ ٢٦٧.

فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه].

ومع هذا لم يتقول بشيء من عنده أو يتحدث عنه ﷺ أو يتعلم شيئاً من الوحي المنزل على الأنبياء السابقين، أو أشكاله قبل بعثته ﷺ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]. ومع ذلك ففي شهر رمضان بعد أن بلغ رسول الله ﷺ الأربعين من عمره نزل عليه الوحي لأول مرة بغار حراء، في جبل النور بمكة المكرمة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الدخان]، في تلك الليلة المباركة جاء الوحي إلى رسول الله ﷺ وهو كما أوضحت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في حديثها المشهور الذي رواه البخاري عن عروة بن الزبير عن خالته عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) أنها قالت: ((أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق

الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق]. (١)

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) فقال: زمِّلوني، زمِّلوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فذكر لخديجة ما رآه وما سمع، وأخبرها وقال: لقد خشيت على نفسي فقالت، خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتُكسِب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، الحديث (٣)، ج١/ ٣؛ وانظر: شرح ابن حجر له في فتح الباري؛ وانظر: ابن كثير في تفسيره، ج٢/ ٢٠١٠.

ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّلَ الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً؛ إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفَتَر الوحي.[1]

وورد أنه ﷺ قال: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسيّ بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت زمّلوني زمّلوني فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ [سورة المدثر].[2]

لقد هيأ الله لنبيه ﷺ امرأة صالحة لمثل هذا الموقف الحساس المتناهي في العظمة، حيث ظهرت حكمتها[3] وفطرتها وثقتها بالله تعالى حيث تذكرت رحمته بعباده الصالحين، وذكرت صلاح النبي ﷺ فقالت: (كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق).[4] هكذا

---

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٠٣.

(٢) ابن كثير، تفسيره، ج١/ ١٩٣٤.

(٣) الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ١٠٨.

وانظر: الحربي علي بن جابر، منهج الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية، ط١، الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٦هـ، ص١٧٧.

(٤) من حديث البخاري، سبق تخريجه.

كانت أخلاق النبي ﷺ التي عرفتها وأكسبتها ثقة بعد ثقتها بالله سبحانه وتعالى، وقيل إن ورقة أوصى خديجة وقال لها : إن زوجك نبي وسيصيبه من أمته بلاء.[١]

كان هذا الشيخ عالماً بحال الأنبياء، وبما يتعرضون له من أذى قومهم، بل وبهجرتهم وإخراجهم من بلادهم، فأسرع بالحديث عن ملامح مستقبل رسول الله ﷺ وما سيصيبه من أذى قومه، وأبدى استعداده لمناصرته والوقوف معه، وقد استدل كثير من العلماء بذلك على أن ورقه يعد من أوائل المؤمنين برسول الله ﷺ،[٢] كما كانت خديجة أم المؤمنين أول المسلمين من سائر البشر رجالاً ونساءً دونما خلاف.[٣]

إن أول الآيات نزولاً على رسول الله ﷺ وكل الآيات كذلك رحمة من الله تعالى تفتح العلم الإلهي للبشرية وسائر أنواع العلوم (إنها القراءة اقرأ) وأي قراءة باسم ربك ومن ربك، إنه الخالق لك وللخلق، والأعلم بكم وبما خلقكم منه ولأجله، إنه الأكرم الذي علّم بالقلم وهو أعظم سلاح، أداة الكتابة، ومن يقول هذا؟ إنه الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، يا سبحان الله

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٠٣.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٢٣؛ ابن حجر، الإصابة، ج٣/ ٦٣٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٢٦٨ و٣٩٧.
(٣) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص١٢٠؛ الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ١١٦.

هذه الآيات وبهذه المعاني والمفاهيم العظمى تتنزل على نبي أميٍّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا يعرف الشعر ولم يعلمه بشر، ولم يتقوّل من عنده شيئاً قبل ذلك، إنه الطهارة والقلب النظيف، والوعاء الزكي الطاهر المُعدّ لحمل الرسالة الذي لم يدنس، يستقبل الوحي الإلهي بأمر الله، وليس من تلقاء نفسه، إنه الوحي الذي نزل على من قبله من الأنبياء ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء]. وقد تتابع القرآن بعد ذلك واتضح الوحي وأنواعه وأحواله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى] ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس] ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء] ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧﴾ [التكوير]، ويقول تعالى:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم].

لقد صحب نزولَ الوحي على رسوله ﷺ تغيراتٌ كونية، فقد حُرست السماء ومنع الجن والشياطين من استراق السمع كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن]. يقول ابن كثير حول تفسير الآيات: (حين بعث الله نبيه محمد ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً وحفظت من سائر أرجائها وطردت الشياطين من مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسرقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يُدرى من الصادق، وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز ومن يرد أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطاه و لا يتعداه بل يمحقه ويهلكه).(١)

لقد كان ردُّ فعل رسول الله ﷺ فطرياً، حينما قيل له اقرأ فقال ما أنا بقارئ، إنه لم يكن قارئاً ﷺ لم يقرأ قبل ذلك، ولم

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢/ ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦.

يدر ما يقرأ إلى أن غطه جبريل عليه السلام، وهذا جزء من تربية ربانية، فما كان ليفعل إلا ما أمره الله به مع حبيبه المصطفي ﷺ، وقد امتثل قراءة ما علمه الله سبحانه وتعالى وأنزل عليه من الآيات القرآنية المباركة وتعرف على ربه وخالقه، ونزل عليه وحيه وعلمه، وهو الذي علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

كما كان ردُّ فعل رسول الله ﷺ حينما دخل داره في مكة على زوجته الحنون، في ذاك الجو الحار وهو يطلب الغطاء دثروني دثروني، زملوني زملوني، حتى أصبحت من أسمائه ﷺ المدثر والمزمل(١) ونزلت آيات القرآن تتحدث عن هذا الموقف المؤثر الذي راقبه الرب تبارك وتعالى وهو يعتني بعبده وحبيبه محمد ﷺ، وسميت باسمه سور تتلى إلى يوم القيامة.

فتور الوحي(٢)

إن الوحي الذي أنزل على رسول الله ﷺ لم يكن باختياره، وكذلك توقفه واستمراره لم يكن باختياره، وليس هذا نقصاً في المصطفى ﷺ، بل هو من كمال نبوته وصدقه أنه ﷺ يسير بأمر الله، والله لا يريد به إلا خيراً ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا

(١) انظر: موضوع أسماء الرسول ﷺ، من هذا الكتاب.

(٢) انظر: حديث البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، حديث رقم (٣)؛ وانظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١٩٦؛ وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص٥١.

يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩﴾ [الأحقاف]. وقد توقف الوحي عن النبي ﷺ فترة محدده،[1] ومهما اختلف العلماء في تحديدها فإن ذلك لحكمة يعلمها الله، كان يرعى فيها حبيبه محمد ﷺ، بغض النظر عن تقديرها بميزان البشر الزمني، التي أرى عدم الفائدة من تحديدها بدقة. ولعل في الخلاف حولها رحمة.

في هذه الفترة كان النبي ﷺ يتطلع إلى استمرار الوحي واتصاله بجبريل واستمرار نعيم الآيات التي أحس منها الرحمة والهدى، فكان يتردد على غار حراء وما جاوره، يدور في الوديان وبين الجبال واثقاً بالله متطلعاً لاستمرار الصلة به سبحانه وتعالى وتكرار الوحي، كان الانتظار قاسياً والشوق لآيات الله قوياً والخوف من الله وابتغاء رضاه جعله يخشى ويترقب ويتوجس، وكان الله سبحانه وتعالى مطّلعاً عليه رحيماً به مؤدباً له بقدرته وعلمه وحكمته الإلهية.

وكان من أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ بعد ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر].[2]

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٤١٢.
(٢) ابن كثير، كتاب التفسير، ج٢/ ١٩٣٤.

ثم كان من ما نزل عليه سورة الضحى[1] في قوله تعالي: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى].[2]

ولعل أهم ما فيها أنّ نِعَمَ الله وعنايته برسوله ﷺ كانت معه منذ بداية حياته وقبلها، وأن فضل الله عليه في الدنيا عظيم وفي الآخرة عظيم، وكل دارس لهذه الآيات بدقة في ظل معرفته بالسيرة، يدرك ما فيها من كرامات وخصائص للنبي ﷺ مرتبطة بحياته من أولها إلى آخرها، وبما بعد حياته ﷺ وأن الله لم يودِّعه ولم يهجره أو يَقْليه، وان الله سيعطيه وينعم عليه حتى يرضى، وكانت نعمة كبرى على حبيبه ﷺ باستمرار الوحي وتتابعه على الرسول ﷺ.

كان شوق الرسول ﷺ للقرآن ولتعلمه وحفظه شديداً في بداية الوحي، وفي كل حياته، فنزل قول الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾

---

(١) محمد أبو شهبة،الإتقان في علوم القرآن، ج١/ ١٠؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/ ٢٨٢

(٢) ابن كثير، كتاب التفسير، ج٢/ ٢٠٠٥؛ والسيرة النبوية، ج٢/ ٤١٢.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة] وقوله تعال ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه].

والعجب ممن يحاول جاداً أن يبحث عن سبب تأخر الوحي، وكأن الرسول ﷺ أتى معصية أو أخطأ متناسياً نفي الآيات لهجر الرسول، وأن الله سبحانه وتعالى يسيِّره برضاه، وأن هذا التأخير في حد ذاته تربيةٌ ومزيدُ إعدادٍ لرسوله ﷺ وليس عقوبة، كما يحاول بعض من كتب بأسلوب فيه شيء من الجفاء مع حال المصطفى ﷺ. وينبغي لكل من طرق الموضوع التعمق في الحدث من خلال الآيات القرآنية.

بدء الدعوة

حين نزول سورة المدثر كانت واضحة في أمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله وإنذار الخلق الذين بعث إليهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر]. إنها الرسالة والدعوة، وما تتطلبه من جد وعمل وإنذار وصبر وطهارة، إنه إنذار الخلق وقيادتهم إلى الله وتوحيده، والخلوص من الشرك، والاستعداد لذلك بالطهارة والنقاء والبعد عن الشر، وحب الخير للناس إنه القيام بأمر الله ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدثر]، إنه أمر الله لرسوله بتكبير الله مع العباد.

ومن الطبيعي أن أمر الإنسان بالخير وإن كان لسائر العباد فإنه ينبغي أن يكون مبادراً من دون تأخير لأول من يلي الإنسان، وأول وأولى الناس بذلك هي أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) التي كانت واضحة في تصديقها لرسول الله ﷺ منذ بداية

الوحي ونزول (إقرأ)، ومع ذلك فقد أكدت إسلامها مرة أخرى بعد الأمر للرسول ﷺ بالإنذار، وبالتالي فإن أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) هي أول من أسلم وآمن بالرسول ﷺ [1] لم يسبقها بذلك لا ذكر ولا أنثى، كما أنها (رضي الله عنها) هي أول من صلى مع رسول الله ﷺ. [2]

كما سارع إلى الإسلام بنات النبي ﷺ، ولذلك فإنهن أسلمن مباشرة مع أمهن خديجة، وخصوصاً الكبار منهن، اقتداء بأمهن وتصديقاً بأبيهن، ولعل الأم لها دور في دعوتهن (رضي الله عنهنّ). وقد نص بعض العلماء على أنه (لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناتها). [3]

كما كان في بيت النبوة علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي انتقل إلى بيت النبي ﷺ ليكون في رعاية المصطفى ﷺ، تخفيفاً على والده في عبء النفقه، فأكرمه الله بذلك، وكان من المستجيبين مباشرة لدعوة النبي ﷺ، وهو دون العشر سنوات فكان أول من أسلم من الصبيان وأقام الصلاة مع الرسول ﷺ وخديجة وبنات المصطفى ﷺ. [4]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٤٠؛ وابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٦.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١ / ٢٤٤. الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ١٢٦.
(٣) انظر: محمد أبو شهبة، ج١/ ٢٨٤.
(٤) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٣٠؛ محمد أبو شهبه، السيرة، ج١/ ٢٨٤؛ والصلابي، السيرة، ج١/ ١٣٧.

وبقاء علي رضي الله عنه في بيت النبوة نال به شرف الحياة مع رسول الله ﷺ قبل مبعثه، واطلع من أموره على ما لم يره غيره. وهناك رجل آخر نال شرف العشرة والتعامل مع الرسول ﷺ وهو مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه،[١] الذي آثر البقاء مع رسول الله ﷺ على العودة إلى أهله وقال لأهله: شهدت منه ما يجعلني لا أدعه، حينما رغبوا في دفع ثمن له وأخذه معهم وكان مولى رقيقاً لرسول الله ﷺ فبادر الرسول ﷺ بعتقه ودعاه باسمه، فصار يسمى زيد بن محمد، إلى أن حُرم ذلك بعد الهجرة فعاد اسمه «زيد بن حارثة».[٢] لقد آمن برسول الله ﷺ وصدّقه دونما تردد، فأصبح كل من هو داخل بيت رسول الله ﷺ مؤمناً به، الزوجة والبنات وابن العم والمولى، فكانوا يصطفون وراء إمامهم رسول الله ﷺ مصلين مصدقين مؤمنين،[٣] وهذا من رحمة الله لرسوله ومن صدقه، حيث آمن به من في بيته جميعاً، وقد عرفوه حق المعرفة ولم يترددوا في ذلك.

ومع كثرة الكلام بين العلماء حول محاولة ترتيب المسلمين الأوائل[٤] فإني لا أشك أن كل من في بيت الرسول ﷺ أسلموا

---

(١) ابن أبي شيبة المغازي، ص ١٣٧.

(٢) ترجمته في موضوع المعايشون للنبي ﷺ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: حديث البخاري في فضائل الصحابة، رقم ٣٦٦١؛ وابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٤٣٧.

(٤) انظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٣.

وآمنوا قبل غيرهم، وأولهم خديجة (رضي الله عنها) قبل نزول سورة المدثر عليه، ولا يستبعد إسلام بقية من في بيت النبوة في وقت واحد، فمن الراجح أنه عرضت عليهم الدعوة في وقت واحد، بعد خديجة ولا يلزم العرض عليهم منفردين على حدة.

وأول من أسلم وآمن برسول الله ﷺ من الرجال أبو بكر الصديق رضي الله عنه،[1] وهو صاحب رسول الله ﷺ منذ وقت مبكر، ربطتهما علاقة خاصة، عرف كل منهما صدق الآخر وجربه وعرف أمانته،[2] وكأن الصديق ينتظر مثل هذا الأمر من رسول الله ﷺ، وقد استعدّ نفسياً لقبول دعوة الرسول ﷺ من دون أي تلكؤ كما قال ﷺ: ((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما عكم حين دعوته ولا تردد فيه))[3] إنه صاحب رسول الله ﷺ بنص القرآن هاجر معه بعد ذلك ونزل فيه قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٣٠.

(٢) انظر: فضائل الصحابة عند البخاري في صحيحه، باب مناقب أبو بكر الصديق، ج٥/ ١٩٢.

(٣) انظر: الذهبي، السيرة النبوية، ص ١٣٦؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج١/ ٩٥.

ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة]. (١)

وكأني بهذه الآية لا تخص الهجرة وحدها، إنه ثاني اثنين في الإيمان برسول الله ﷺ وتصديقه واتباعه. ولم يكن إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢) إسلاماً عادياً يتوقف عند صاحبه، بل كان رجلاً مباركاً تحرك منذ إسلامه داعية للإسلام ولرسول الله ﷺ، كان ينتقي الرجال الصادقين العقلاء ليدعوهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ، وقد أسلم على يد أبي بكر رضي الله عنه معظم العشرة المبشرين بالجنة ومنهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود وطلحة ابن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل رضي الله عنهم أجمعين. (٣)

وقد أخذ الإسلام ينتشر سراً بين قريش، وزاد عدد المسلمين وكان بعض المسلمين لا يعرف بإسلام الآخر، وكل من أسلم يعمل داعية لله ورسوله ﷺ، ويعرض الإسلام على من يثق به ممن حوله، (٤) وقد بدأ خبر إسلام هؤلاء ودعوة

---

(١) انظر فضل الصديق، عند البخاري في صحيحه، وعند مسلم في صحيحه، وانظر: تفسير ابن كثير، ج١/ ٨٨٣.

(٢) انظر: البخاري، باب إسلام أبي بكر رضي الله عنه، ج٤/ ٢٤٠.

(٣) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٢٥ ـ ١٣٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٥٠.

(٤) صالح الشامي، من معين السيرة، ج١/ ١٩٨.

الرسول ﷺ يتسرب إلى رجالات قريش،[1] لكن عدم جهر الرسول ﷺ بالأمر وعدم عيبه أصنامهم في هذه المرحلة جعل زعماء الكفر في قريش يسكتون ويتغاضون، رغم خروج أخبار الدعوة بحدود.

كان المسلمون الأوائل من أشراف مكة[2] وفيهم من المستضعفين من أمثال بلال بن رباح وعمار بن ياسر وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود، وكان معظم المسلمين من الشباب.

كما كان فيهم عدد من النساء، منهن أسماء بنت أبي بكر الصديق، وفاطمة بنت الخطّاب، وفاطمة بنت المحلل، وفكيهة بنت يسار، ورملة بنت أبي عوف، وأمينة بنت خلف زوجة خالد ابن سعيد بن العاص، وسمية أم عمار (رضي الله عنهم أجمعين) وغيرهن،[3] ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء المسلمات تأثرن بإسلام أزواجهن، وبالتالي تكونت بيوت وأسر مسلمة وسط مجتمع مكة الكبير.

وخلال سنوات ثلاث من الدعوة أسلم ما يقارب الأربعين

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ص ١٩٨.

(٢) انظر: إحصائية محمد شاكر في عدد المسلمين الأوائل، (التاريخ الإسلامي، السيرة النبوية) حيث غلب الأشراف على المستضعفين في الإسلام، ص٥٨؛ ومن معين السيرة، صالح الشامي، ص ٣٩.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٥٦؛ وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٤؛ وصالح الشامي، من معين السيرة، ص ٣٨.

من الرجال والنساء أشرافاً ومستضعفين، أحراراً وأرقاء،[١] ويمكن أن يكون العدد أكبر من ذلك لوجود مسلمين لا يعرف بعضهم بعضاً، والغالبية منهم كانوا من أشراف أهل مكة وشبابها وذوي النسب فيهم.[٢]

كان الرسول ﷺ من البداية يتوقع شراً من المشركين وشديد أذى لأتباعه وله ﷺ، ولذلك كان تحركه حذراً، وكان الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه حريصين على أن يفدوا رسول الله ﷺ بأنفسهم، ولذلك كانوا يباشرون الدعوة بأنفسهم من دون أن يلزم ظهور رسول الله ﷺ إلا عند الحاجة والقناعة من المدعو، فيؤتى به لرسول الله ﷺ،[٣] مع أنه لم يتوقف بنفسه عن الدعوة فكان العمل مشتركاً.[٤] وكان المسلمون الأوائل يشاركون بعضهم بعضاً في تلاوة القرآن والصلوات مختفين في الشعاب والأودية والبيوت،[٥] وقد عرفوا من خلال تلاوة القرآن والسماع من النبي ﷺ أن أتباع الأنبياء يتعرضون للأذى والقتل.

كان الرسول ﷺ يربى أصحابه على التوحيد وإخلاص

---

(١) من رواية مسلم عن عمر بن عنبه، حديث رقم: ٨٣٢؛ وانظر: تخريجه عند إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٥؛ وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/٤٣٦.

(٢) صالح الشامي، من معين السيرة، ص ٤٠.

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/٤٣٨.

(٤) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١٩٩.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٤٦، ج١/٢٦٣.

العبادة لله تعالى وحمل همّ البشرية وربطها بخالقها وإنقاذها من الشرك،[1] والاستجابة الكاملة لله تعالى ونزاهة القلوب، وحب الخير للناس، وتقوى الله والرغبة في ما عنده، وابتغاء الدار الآخرة، واتخاذ الأسباب والتوكل على الله.

وفي هذه المرحلة كان ضمن الداخلين في الإسلام الأرقم ابن أبي الأرقم، فكانت داره ملتقى للمؤمنين برسول الله ﷺ وبعضهم ببعض، فيها ينهلون من نبي الرحمة مباشرة. كان النظر إلى الرسول ﷺ والجلوس معه والاستماع إليه نعمة عظيمة صعبة التحقيق، إن لم تكن في مكان محدد بعيداً عن أعين قريش، وخطرها المحدق بالرسول ﷺ، إنه المربي الذي يحتاج إلى جو خاص ليتلو عليهم كتاب الله تعالى وليروا بأنفسهم أحياناً نزول الوحي عليه ﷺ، فكان هؤلاء نواة امة الإسلام الكبرى التي ضربت في أنحاء الأرض كافة حتى اليوم الحاضر، إنهم دعاة الخير وحملته للبشرية: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف].

استمرت مرحلة الدعوة الأولى ثلاث سنوات وقد عرفت بمرحلة الدعوة السرية[2] كان المؤمنون جميعاً ينتظرون مراحل

---

(١) انظر: علي الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ١٤٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٦٢.

قادمة في الدعوة، تتطلب منهم الاستعداد للبذل والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله، وقد عرفوا أن ذلك من سنن الله مع الأنبياء وأتباعهم، وتربوا على أوائل ما نزل من السور المكية من القرآن الكريم، كما كان الرسول ﷺ يرعاهم ويحن عليهم ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء].

بعد مضي ما يقرب الثلاث سنوات من الدعوة إلى الإسلام وانتشاره بين بطون قريش وشدة تكتم المسلمين حتى أن بعضهم لا يعرف البعض الآخر،[1] نزل عليه ﷺ قوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧﴾ [الشعراء]، جاء أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بإظهار دعوته وإنذار قومه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر].[2]

فخرج رسول الله ﷺ إلى الحرم وهو منطقة فضاء، وصعد

---

(١) انظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/ ١٤٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ج١/ ١٠٥٣.

على الصفا حيث ارتفع على الصخرة وأشرف على المكان، وأخذ ينادي الناس (وا صباحاه).[1] وكان هذا الأسلوب متبعاً عند العرب للدعوة للاجتماع والاستماع لمتحدث في أمر هام وخطير عند الإحساس بذلك، وأخذ ﷺ ينادي في قريش: ((يا بني فهر، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، يا بني فلان، يا بني فلان، حتى اجتمع القوم فقال أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدّقيَّ؟ فقالوا ما جربنا عليك كذباً)). لقد كانت تلك شهادة عامة من الجميع بصدق الرسول ﷺ فقال ﷺ: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم)). فكان في الحضور عمه أبو لهب فرد عليه بعنف وقسوة وتجبر: (تباً لك سائر هذا اليوم! ألهذا جمعتنا).[2]

فنزل رسول الله ﷺ وقد بلَّغ علناً أمام أهل مكة جمعاء أمر ربه، وكان رد أبي لهب وهو عمه ومن أقرب الناس إليه رداً قاسياً عنيفاً صعباً وأنزل الله على رسوله ﷺ وفيه آيات تتلى إلى يوم القيامة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المسد]. لم يكن موقف العناد

---

(١) من رواية للبخاري في صحيح، كتاب التفسير، باب سورة تبت يدا أبي لهب وتب، ج٦/ ٩٤.

(٢) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٠، وإبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٦.

خاصّاً بأبي لهب، بل شاركته فيه امرأته التي استمر أذاها للرسول ﷺ.[(١)]

كما أنه ﷺ قال في تلك الدعوة الأولى: ((يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئتِ من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً)).[(٢)] كان كلام رسول الله ﷺ واضحاً وقوياً وهو يدعو إلى الله وأنه نذير ولن ينفع أحداً إلا الصلة بالله وطلب رضاه، وأن قرابتهم له لن تنفعهم وحدها ولا يملك رسول الله ﷺ شيئاً لمن لم يطلب رضا الله بالإيمان والتوحيد والتصديق.

لقد كانت هذه الدعوة قوية منذ البداية، ذات صدى عال، وصلت أسماع القوم الذين كان أغلبهم معاندين منذ البداية، وربما سمعوا بهذه الدعوة سابقاً وقبل موقف يوم الصفا، لكنهم تريثوا في الرد، وقد كانت شهادة القوم بصدق الرسول ﷺ وأنهم ما علموا عليه كذباً قط مقدمة حقيقية وواقعية تفيد بأن ما جاء به صدق وامتداد لتاريخ صادق لم يجرب عليه ولا يتوقع منه

---

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٠.

(٢) انظر: صحيح البخاري، تفسير سورة الشعراء، باب وأنذر عشيرتك الأقربين، ج٦/ ١٦، وانظر: التخريج عند إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٦.

كذب قط، وبالتالي فإن المعاندين الذين تقدمهم أبو لهب في الرد على رسول الله ﷺ كانوا يعرفون صدقه ولا يشكون فيما قال، لكنهم اختاروا طرق التكبر والكفر والعناد، وأصبحوا خصوماً لرسول الله ﷺ منذ البداية، ولدعوته الصادقة وهو الصادق الأمين، كما عرفوه قبل ذلك. وقد ظهرت من كثير منهم علامات التهديد وإن لم تنقل لنا صراحة، لكنها متوقعة في مثل هذا الموقف.

وما نقل عن أبي لهب لا ينفي حالات أخرى غير مستبعده لآخرين في هذا الموقف، كما أن هذا الإعلان عن الدعوة لم يتوقف عند حدود مكة، حيث تناقل الركبان الخبر، وكان له أثره خارج مكة في الباحثين عن الحق.

وقد وردت روايات أخرى مفادها أن الرسول ﷺ جمع عدداً من أهل بيته قرابة الثلاثين منهم، وصنع لهم طعاماً فلما أكلوا وشربوا حدثهم النبي ﷺ قائلاً: إني بُعِثتُ لكم خاصة وإلى الناس بعامة وقد رأيتم ما رأيتم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي، فلم يقم إليه أحد منهم سوى علي بن أبي طالب عليه السلام وكان أصغر القوم سناً وأرجحهم عقلاً وأكثرهم علماً وإيماناً.[1]

---

(١) انظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص ١٢٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/٤٥٦.

وقد يكون حدوث هذه الواقعة بعد دعوته العامة في الصفا، وهي الأرجح، وقد تكون قبلها مباشرة، وعلى كل فدعوته لعشيرته الأقربين وصدعه لقريش والناس كافة كانتا متقاربتين وربما لا يفصل بينهما سوى أيام.

وبهذا ينتهي الجزء الأول من هذا الكتاب، ويليه بإذن الله تعالى الجزء الثاني الذي بدايته أذى المشركين للرسول ﷺ، وما لقي منهم.

الفهرس